



أحمد عبد الله الدامغ

الجزء الخامس عشر



مركز سعود البابطين الخيري للتراث والثقافة
قسم الدراسات والبحوث والنشر
الرياض ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ مـ



ح احمد عبدالله الدامغ، ١٤٢٤ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الدامغ ، احمد بن عبدالله
الادب المثمن / احمد بن عبدالله الدامغ - الرياض، ١٤٢٤ هـ
١٦ مج. ، ٣٣٦ ص ، ١٧ X ٢٤ سم
ردمك: ٥-٣٣١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٣-٣٣٢-١٠-٩٩٦٠ (ج ١)
١- الادب العربي - مجموعات أ- العنوان
ديوي ٨، ٨١٠ ١٤٢٤/٢٧٧٣

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٢٧٧٣
ردمك: ٥-٣٣١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٣-٣٣٢-١٠-٩٩٦٠ (ج ١)

المملكة العربية السعودية ص.ب ٩٣٩٢٧ الرياض ١١٦٨٣ هاتف ٤٨٧٠٥١٣
فاكس ٤٨٧١٤٢٧ / ٣٦
الموقع على الأنترنت
www.albabtain-center.com
البريد الألكتروني:
E-mail: info@albabtain-center.com



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة

لعله من المستحسن أن تكون مقدمة هذا الجزء، إشارة مختصرة وموجزة عن جزء من جانب منهج تأليفي لهذا الكتاب، وهو جزء لم تسبق الإشارة إليه فيما تقدم من أجزاء رغم أحقيتها بالأولوية ألا وهي تذكير القارئ الكريم بأن الطابع العام لموضوعات هذا الكتاب لم يكن تقريراً، وإنما هو حواري حيناً واستعراضي حيناً آخر، لأن التقرير ربما يحيله المنطق الفلسفي إلى شيء لم يكن في ذهني إبان إنشاء الموضوع، فأصبح في زاوية أدبية ضيقة، أو بعيدة عن النظرة العامة التي أطمع في أن تُلقى على كل موضوع أكتبه في هذا المؤلف، ولهذا تركت في كثير من الموضوعات باب المشاركة مفتوحاً للقارئ، ليقول رأيه فيما أطرحه من موضوعات يكون فيها لتعدد الرأي فسحة.

المؤلف
أحمد عبد الله الدامغ
ص.ب ٤٠١٣٨ الرياض ١١٤٩٩



الحماني يتذكر الشباب في عصر المشيب

ما من فتى يشيب إلّا وينعى شبابه بلهجة فيها شيء من التأوه الدال على الضجر مما فعله المشيب به، بل ويتخذ من بيت أبي العتاهية:

ألا ليت الشباب يعود يوماً
فأخبره بما فعل المشيب

مساعداً لبوحه بما يعانيه من المشيب.

أما الشاب حينما يسمع المسن ينشد هذا البيت، فإنه لا يصغي إليه ولا يأبه به لأنه لا يتصور ما فعله المشيب بقائله ومنشده.

والحقيقة أن الشاب حينما لا يصغي إلى معنى بيت أبي العتاهية، فإنه لا يعاتب على ذلك، لأنه ما مسه ثقل المشيب وما يصاحبه من آلام وضعف في جميع الأعضاء وسائر الجسم وتصور الاقتراب من الانتهاء من الحياة.

والشكوى من الشيب ليست مقصورة على فئة من المسنين، وإنما هي دارجة على ألسنتهم جميعاً لأنهم دخلوا في المرحلة المضادة للشباب، وهي مرحلة تغلبت على كل ما في الشباب من قوة وحيوية، وأحالت قوته إلى هزل. ونشاطه إلى فتور دائم.

وإذا ما أردنا الوقوف على مشاعر شاعر أسنّ، وأخذ يتذكر شبابه ويتأوه على فقده ويستعرض صفحات أيامه الزاهية، فإن الشاعر الحماني واسمه: علي بن محمد بن جعفر بن محمد بن زيد بن علي بن



الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لا يعرف تاريخ ميلاده أما تاريخ وفاته فكان في سنة ٣٠١هـ.

قلتُ: إن الشاعر الحماني هو واحد من الشعراء الذين استعرضوا أيام شبابهم في بعض أشعارهم، وذلك بقوله من قصيدة له:

واهاً لأيام الشبا
ب بَعُدْن عن عهد قريبِ

أيام غصنُ شبيبتي
ريّانُ معتدل القضيب

أيام كنت من الغوا
ني في السواد من القلوبِ

لو يستطعن خبأنني
بين المخانق والجيوب

أيام كنت وكنّ لا
متحرّجين من الذنوب

غِرّين يشتكيان ما
يجدان بالدمع السروب

لم يعرفا نكداً سوى
صد الحبيب عن الحبيب(١)

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ نحواً من ثلاثة عشر بيتاً، وهي غاية في التوجد على الشباب وأيامه.

○○○○○

(١) [ديوان الحماني ص٤٠، ٤١].

المشعان يصف شهية التّتّان

والمشعان هو محمد مسعد المشعان شاعر سعودي معاصر. له مسلك شعري متميز من حيث مناقشة الحالات الاجتماعية التي يرى فيها ضرراً على من كان واقعاً بها ومناقشته كلها إيحاء يشكل منفذاً يتخلص من خلاله المتورط في ممارسة ذلك الضرر.

والذي يقرأ شعر المشعان يعرف أنه شاعر متمكن، وإنه وإن استخدم العامية في بعض الألفاظ والمفردات في شعره لا يوصف بأنه (حلمنتشي) لأنه كان يهدف من وراء استخدام بعض الألفاظ العامية إيصال خاطرته الإصلاحية إلى أكبر عدد ممكن من الناس، العامي منهم والمثقف على حد سواء.

وأسلوبه هذا ربما كان من السهل الممتنع، بدليل أنه حينما يقرؤه بعضهم يرى أنه يستطيع أن يجاريه ويسلك مسلكه، لكن تحول بينهما عقدة النجار كما يقولون.

ومما استوقفني من قصائد الشاعر محمد المشعان التي يصعب على الناقد اختيار أيهما يدرسه وينقده، قصيدته التي جعل عنوانها «وإذا الهموم تكاثرت» وتناول فيها ظاهرة سيئة، هي ظاهرة التدخين، وقد مزج الجد بالهزل كأسلوب مشوق لقراءتها من ناحية، ولأنه يطمع في أن يؤثر بها في نفس القارئ وبخاصة الذي يمارس التدخين من ناحية أخرى.

وقد استهلها بما يشبه فتح شهية المدخن، وذلك بقوله:

لايعرف «التتن» إلّا من «يتتنه
ولا» المعسل إلّا من يدخنه



إن «الجراك» الذي في البيت أخزنه
أعطيك منه، إذا شرفت أحسنه

أما «السيقار» فعندي منه أثمنه
يا صاحبا «شفطة» «السيقار» ديدنه

ثم يدع الهزل ويلتفت إلى الجد لينحي باللائمة على زراع التبغ، وذلك بقوله:

يا زارع التبغ لا كانت شجيرته
ولا تلقى نزول الغيث موطنه

أما علمت بأن التبغ مهلكة
لمن يدخنه، أو من يقارنه

ثم يشير إلى أن بعض المدخنين ما مارس التدخين إلّا عن طريق التقليد.

غوت شعوب وظنت فيه مفخرة
مثل القرود مع التقليد تتقنه

هذا رأي «تشرشل» المشهور في يده
«سيقار» يخفيه أحياناً ويعلنه[1]

فظن جهلاً بأن «التتن» يجعله
يرى «تشرشل» مسروراً يراطنه

جريدة «الرياض»، العدد ١١٤٢٨ يوم الجمعة جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ، والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ ١٥ بيتاً.

---

(١) تشرشل رئيس وزراء بريطانيا أثناء الحرب العالمية الثانية التي بدأت في أول سبتمبر عام ١٩٣٩م.

شكري وشغفه بحب هاجره!!

ترجم الشاعر المعاصر شكري سليمان شكوري شغفه في أبيات شعرية استهلها بقوله:

لـم يـزدنـي الـهـجـر إلا شـغـفـاً
وحـنـيـنـاً واشـتـيـاقـاً ووفـا

ولا أدري هل أتصور مدى شغفه وحبه لمن هجره، وأطلق عنان قلمي يجول في رحاب قصيدته وأتخذ من الوقوف عليها موضوعاً أدبياً؟ أم أغمده وأكتفي بنقل ما جاء في توطئته للقصيدة لأن في التوطئة أسلوباً مسانداً للغرض الذي ضمنه إياها؟

ولعل هذا الأخير سيكون أصدق من تصوري، ولهذا أنقل قوله: «مثلما تدمر النفس زنزانة الحبس المنفرد، وتقتل مرارة الصبا حاسة الذوق المتقد، ومثلما ماء البحر المالح يزداد به المرء ظمأً، وإشارة مرور جدباء لا ينبت فيها العشب الأخضر قط.

ينزع الهجر هنا كل إحساس بالحياة لا سيما إذا جاء بعد طول ود ووصل، ومهما حاول طريد الفردوس أن يتسلى بالصبر، فإن كل دكاكين الصبر تصبح غير ذي فائدة له.

ويظل يحيا على أنفاس شعر يناجي به ويناشد، ويذكر بالعهد القديم. لعل القلب الجافي تنبت فيه زهرة العفو فيعفو.

أما القصيدة فتبلغ نحواً من أربعة عشر بيتاً، وسأختار منها قوله، وهو الذي يلي مطلعها الذي تقدم ذكره:



صابر.. منتظر.. محتسب
وكفاني من حنيني ما كفا

رب دمع حبسته أعيني
وفؤاد من دموع أتلفا

أكتم الآهات حتى أختلي
وأبث الليل شكوى متلفا

كم سرى ليلي وكم طال السرى
سهد مرو قلب وجفا

ومنها قوله:

لم أكن أملك أمري إنما
هاجري يملك قلبي المدنفا

ومنها قوله:

لك روحي هاجري فاصنع بها
ما ترى مهما بلغت السرفا

ومنها قوله:

وفؤادي كلما أسرفتُ في
قسره ازداد على القسر وفا[1]

والحقيقة أن مثل هذه المداخلات الغزلية، التي يحاول الشاعر أن يمزج فيها النثر بالشعر يجد فيها القارئ بعض المتعة، حتى وإن كانت تعبر في بعض الأحيان عن مشاعر خاصة.

(١) جريدة «عكاظ»، العدد ١٢٠٣٣، السبت ٢٥ ربيع الآخرة ١٤٢٠هـ.

معنى الذكريات وواقعها في أبيات.. لأحلام!

والذكريات تعني فيما تعنيه استذكار الأحداث الماضية التي تعلق بالذهن ولا تبارحه مهما طال بها الزمن، والذي يكون منها أكثر معاودة للذهن بين الحين والآخر هو ما لم يكن عادياً بالنسبة لجميع الأحداث التي تمر بالإنسان، ويطوي النسيان الشيء الكثير منها.

وإنما هو ذلك الشيء الذي قد انطبع في القلب، وفرض انطباعه تذكره واسترجاع صوره ومعالمه، بصورة تفرض على المتذكر تخصيص جزء من وقته للتأمل في سالف عهده.

وقد يجلب عليه تأمله شيئاً من الكآبة في نفسه، إذا لم يكن من الممكن إعادة عجلة الزمن إلى عصره، أو العودة بالحالة إلى مرابعه، وإنما هي ذكرى ربما تعود عليه بالتأوه على ماضٍ مضى وعصر شباب انقضى، واجتماع آلت يد الزمان بتفرقه، أو ما إلى ذلك من أسباب الشتات الذي لا يبقي حالاً على حال ولا مرتَبِع في مرتَبَع.

ولو سألنا عمن يكون أكثر الناس تذكراً؟ لنحصرنا الجواب في الشعراء الذين كثيراً ما نقرأ لهم في أشعارهم بوحاً به بذكرياتهم، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنهم يترجمون وقفاتهم على ما يثير قرائحهم من ذكريات الماضي.

والشاعرة السعودية المعاصرة أحلام بنت منصور الحميّد كانت تمر على إحدى قاعات الدرس والمحاضرة بالكلية، وترى المقاعد مشغولة بزميلاتها.

ولما تخرجن من الكلية، مرت ذات يوم فرأت المقاعد خالية منهن



فطافت بها الذكرى، وأهدتهن أبيات شعرية تترجم ذكريات لها معهن من تلك الأبيات قولها:

خلت المقاعد من جلوس أحبتي
فأخذت أرقبها بعين ضياعي

قد كن بالأمس القريب بصحبتي
ما بالهن رحلن بدون وداعي

فجلست أذكرهن حتى رقرقت
دمعات عيني قبل سكب يراعي

أصداء أصوات لهن بخافقي
ضحكاتهن تعلقت بسماعي

واليوم قد رحلت.. فلن يبقى سوى
ظلّ وحيد مضّه إقناعي

رُحماك يا ربي ففي قلبي لظى
نار وثورات كوت أضلاعي

هذا منادي البين نادى جمعهم
قهراً أراهم يتبعون الداعي

من لي وقد رحل الأحبة يا دنى
من لي ففي غور الحشا أوجاعي(١)

والحقيقة أن مثل هذا البوح يعد بوحاً صادقاً بذكريات جميلة، لا يطويها النسيان من الذهن مهما طال الزمن.

○○○○○

(١) جريدة «الرياض» العدد ١١٤٢٨، يوم الجمعة ٢٨ جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ.

وقفة على قصيدة فائزة

تعقد بعض صحفنا ومجلاتنا السعودية مسابقات ثقافية وأدبية، تمول جوائزها بعض المؤسسات والشركات الوطنية، والهدف من طرح المسابقات، هو بالطبع ترغيب القراء على المداومة على قراءة الصحيفة التي تصنع المسابقة، واتخاذها الصحيفة المحببة، وهذا أسلوب لا بأس به من حيث التحفيز على القراءة من ناحية، ومن حيث شحذ الأفكار من ناحية أخرى، خاصة إذا كانت شروط المسابقة مبنية على تقديم أعمال أدبية، كقصة قصيرة أو قصيدة أو موضوع أدبي معين، أو ما إلى ذلك من النشاطات الأدبية والثقافية، التي تجعل التنافس قائماً بين المتسابقين من القراء.

ولقد كانت لي وقفة على قصيدة فازت بالجائزة الكبرى في مسابقة ثقافية، بجريدة الرياض والتي رصدت لها مبلغ عشرة آلاف ريال من بين مجموع الجوائز التي بلغت قيمتها سبعمائة وخمسين ألف ريال.

وقد كنت أرغب من وقفتي تلك في الاستمتاع بالموضوع الذي طرقه شاعرها، الشاعر طلاق الطويقري من مكة المكرمة، لكني بقراءتها نعيت الشعر، لا لأنها ليست بقصيدة عادية كقصائد بعض شعراء عصرنا وإنما لكونها أنها كانت أفضل ما قدم، وقد ساورني الشك في أن اللجنة الفاحصة للمسابقات الشعرية هي التي لا تدرك الحسن من الأحسن من الشعر، وعسى أن يكون ذلك فلا ننقل النعي للشعر والشعراء ومتذوقيه، بسبب الشاعر الذي لم يتأخر عن بعض شعراء عصره المبتدئين.

ويبقى أن ننقل بعضاً من أبيات القصيدة الفائزة، قصيدة الطويرقي، ليشاركني القارئ الرأي فيما أشرت إليه، منها قوله:

أمي تشارف عامها الخمسينا
وتدسُّ من وجه الندى تشرينا

نأت المرايا فاستبد نشيجها
في رأس أمي لهوة وسنينا

ورحى من الذكرى تؤلب جمرها
وتكبُّ من شجن اللظى تنينا

قبل الوداع أذوب في نظراتها
وتشرُّ في رئتي الوداع حزينا

ليلاً نفرُّ إذا آوت لفراشها
نخشى دموع وداعها تثنينا

أتذكر الآن الحديث إذا رأت
مني الحقائب واستوت تبكينا

ورأت جواز تشردي بحقيبتي
بين القصائد يحمل العشرينا

تبكي عليك مدامعي ومحاجري
إن المسافر إذ يعود سجينا

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ نحواً من ١٢ بيتاً، وقد نشرتها جريدة «الرياض» في عددها ١١٤٢٨ الصادر يوم الجمعة ٢٨ جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ.

○○○○○

أبو نواس يشهد بشاعرية بكر بن مرداس

هناك حكاية قرأتها في كتاب «صفة جزيرة العرب» للسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني المولود عام ٢٨٠هـ والذي اختلف في سنة وفاته، فقيل: إنه توفي سنة ٣٣٤هـ لكن شيخنا علامة الجزيرة حمد الجاسر خالف ذلك فيما كتبه في مقدمة كتاب «صفة جزيرة العرب» حيث قال: عاش حقبة من الزمن لا يعرف مقدارها لكنها تأخرت إلى ما بعد ٣٤٤هـ.

أما الحكاية فهي تصف شاعراً اسمه: بكر بن مرداس، وأنه كان ظريفاً آدم حسن الهيئة والنظارة، وكانت له ثياب بعدد أيام مخرجه من منزله في السنة، وكان من تمام مروءته ألّا يخرج من منزله، قبل أن يعقد ـ أو قيل يتفقد ـ شسعي نعله، فلم يره أحد منقطع الشسع في طريق، وكان شعره سائراً، قال الهمداني: خبرني ابن مرزا الأبناوي عن بعض من حدثه من أهل صنعاء عن أبيه قال: وافيت الحج فرأيت في الطواف فتى ظريفاً خفيف الروح يعصب به جماعة حتى قضى طوافه وصلاته، فقلت: من هذا؟ فقيل: أبو نواس الحسن بن هانئ فسلمت عليه، وفاوضته وأخبرته بنفاق أشعاره، وأخباره بصنعاء، وسألته شيئاً منه فقال: تطلبني مثل هذا وعندكم بكر بن مرداس، قال: قلت وإنه عندك بهذه المنزلة؟ فقال: أما هو القائل، قلت: وذكر الهمذاني أبياتاً منها:

يـا إخـوتـي إن الـطـبـيـب الـذي

تـرجـون أن يـبـرئـنـي مُـسْـقـمـي



وما ألى نصحاً ولكنه
عن علم ما بي من سقام عمي
فسائلوه عن عقاقيره
وسائلوه ما الذي أحتمي
فإنما الطب لمن داؤه
من مِرّةٍ أو بلغم أو دم
والحب لا يشفى بإيارجٍ
ولا بترياقٍ ولا محجم[(١)]
إلا بشم الحب أو ضمه
ومج ريق من فم في فم
فيا شفاء النفس من دائها
داوي سقامي وارحمي تُرحمي

ومنها مخاطباً محبوبته:

فاعتقي عبدك مما به
وأكرمي وجهك أن تظلمي[(٢)]

والحقيقة أنها شهادة لا يطعن فيها لأن الواقع الملموس من خلال تلك الأبيات الغزلية الجميلة تزكية ثم هي شهادة تعتبر نافية عن أبي نواس صفة الحسد الذي نراه قائماً وبصفة مستمرة بين أصحاب الصنعة الواحدة، أي صنعة كانت.

○ ○ ○ ○ ○

(١) الأيارج: معجون مسهل.

(٢) كتاب «صفة جزيرة العرب» ص ٨٤، ٨٥.

المعنى اللغوي للفظة.. صلى

ذكر ابن منظور في معجمه «لسان العرب» أقوال بعض علماء اللغة في معنى الصلاة فقال: قال ابن الأثير: وقد تكرر في الحديث ذكر الصلاة، وهي العبادة المخصوصة، وأصلها في اللغة الدعاء فسميت ببعض أجزائها، وقيل: أصلها في اللغة التعظيم، وسميت الصلاة المخصوصة، صلاة لما فيها من تعظيم الرب تعالى وتقدّس.

وللفظة الصلاة من حيث المعنى عدة وجوه ذكرها ابن منظور، منها الركوع والسجود، والدعاء، والاستغفار «أي يدعو المرء ربه لأخيه بما يتفق وحاله. فإن كان حياً يدعو له بما يصلح شأنه، وإن كان ميتاً يدعو له بالمغفرة» قال عليه الصلاة والسلام: إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب فإن كان مفطراً فليطعم وإن كان صائماً فليصل، يعني فليدع لأرباب الطعام بالبركة والخير، والصائم إذا أُكل عنده الطعام صلت عليه الملائكة.

أما صلاة الله على رسوله فهي رحمة له وحسن ثناء عليه قال تعالى في سورة الأحزاب آية ٥٦: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾، فالصلاة من الملائكة دعاء واستغفار، ومن الله رحمة، وبه سميت الصلاة لما فيها من الدعاء والاستغفار، قال ابن منظور: وفي حديث ابن أبي أوفى أنه قال: أعطاني أبي صدقة ماله فأتيت بها رسول الله ﷺ فقال: اللهم صلى على آل أبي أوفى، قال الأزهر: هذه الصلاة عندي رحمة، وقال العلماء: كل داع فهو مصل.

وعلى اعتبار أن الصلاة دعاء نلتفت إلى أقوال بعض الشعراء الذين ضمنوا لفظة «الصلاة» بعض أشعارهم، وذلك مثل جرير بن



عطية بن حذيفة ينتهي نسبة إلى مناة بن تميم بن مر توفي عام ١١١هـ في رثاء المراد بن عبد الرحمٰن بن أبي بكرة مولى النبي ﷺ.

صلّى الإلٰه عليكَ من ذي حفرة
خَلَت الديار له فهن قفارُ

وسقاك من نوء الثريا عارض
تنهلُّ منه ديمةٌ مدرارُ

ومثل قوله وهو يمتدح يزيد بن عبد الملك:

صلّى القبائل من قريش كلُّهم
بالموسمين عليك والأنصار

ومثل قوله وهو يرثي زوجته خالدة بنت سعد، أم ابنه حزرة بقصيدة طويلة منها:

صلّى الملائكة الذين تخيروا
والصالحون عليك والأبرارُ

وعليك من صلوات ربك كلما
نصب الحجيج ملبدين وغاروا

يا نظرة لك يوم هاجت عبرةً
من أم حزرة بالنميرة دارُ

ومنها قوله الذي يتصف بالحكمة:

لا يلبث القرناء أن يتفرقوا
ليل يكرُّ عليهم ونهار

ويقول الراعي النميري واسمه عبيد بن حصين ينتهي نسبه إلى عيلان بن مضر بن نزار توفي سنة ٩٦هـ من قصيدة له:

صلّى على عَزّة الرحمان وابنتَها
ليلى وصلى على جاراتها الآخر

هل كان جرير متعجلاً
في إنشاد قصيدته لعبد الملك؟!!

من القصائد ما يسمى بالحوليات. وهي التي يمضي على صناعتها حولاً كاملاً وشاعرها يغير فيها ويبدل، وكأنما هو يغربل شيئاً من القمح، حتى إذا ما تمت تنقيته وتصفيته من جميع الشوائب دفع به إلى الرحى ليصبح طحيناً نقياً يعجن ويطبخ ويؤكل بشهية.

وقد اشتهر بالحوليات الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى.

وبطبيعة الحال. فالشاعر الذي لا يعيد النظر في قصيدته، يكون عرضة للانتقاد.

أما الذي يقف عند كل كلمة يقولها، وينظر فيما استفسر به عند إذاعتها، فإنه وبلا شك يبتعد بنفسه عن الملاحظات التي تقلل من قيمة قصيدته أو تحول بينه وبين المكافأة عليها إن كان طالباً المكافأة، قال جرير بن عطية بن حذيفة ينتهي نسبه إلى مناة بن تميم بن مر توفي عام ١١١هـ مفتخراً بقرابته من عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي، وهاجياً خصمه اللدود الأخطل، النصراني:

هذا ابن عمي في دمشق خليفة
لو شئت ساقكم إليّ قطينا

فجعل المشيئة له لا لعبد الملك ولذا روي أن عبد الملك قال في ملاحظته على هذا البيت، ما زاد ابن الفاعلة أن جعلني شرطياً، لو قال: لو شاء ساقكم إليّ قطينا، سقتهم إليه، والقطين: الرقيق



والسكان، والبيت هو آخر أبيات قصيدة قوامها ١٩ بيتاً وقبله يقول:

وَلَدَ الأُخيطَلَ نسوة من تغلب
هن الخبائثُ بالخبيث غذينا

إن الذي حرم المكارم تغلبا
جعل الخلافة والنبوة فينا

هل تملكون من المشاعر مشعراً
أو تشهدون مع الأذان أذينا

مضر أبي وأبو الملوك فهل لكم
يا خزر تغلب من أب كأبينا

هذا حصل في عصر بداية ازدهار الشعر حيث صفاء اللغة، وحيث كان الشعر ينقد بالشعر أما في عصرنا هذا فلا أظن أن قصيدة تبقى شهراً. بل ربما لا تبقى يوماً بعد الفراغ من نظمها إلا وهي منشورة على صفحات الجرائد والمجلات، فلا تؤدة ولا تأني وإنما سرعة فائقة تعمي وتصمي صاحبها عن النظر فيما دون وجل من أخطاء لغوية، أو نحوية، أو ما بها من عرج من الوزن أو خلل في المعنى يجعل العزوف عن النظر فيها وتمعن قراءتها أمراً مؤكداً عند متذوقي الشعر ولعله من المناسب أن أختم هذا الموضوع بشيء من هجاء جرير للأخطل النصراني وذلك مثل:

قل للأخيطل لم تبلغ موازنتي
فاجعل لأفك «....» القس ميزاناً

إني امرؤ لم أرد فيمن أناوئه
للناس ظلماً ولا للحرب إدهاناً

لاقى الأخيطل بالجولان فاقرة
مثل اجتداع القوافي وبرهِزّانا



دعوة للتمهل

عثرتُ على وريقة تمثل إصداراً مدرسياً لمدارس التربية النموذجية بالرياض وقد سطر عليها أبياتاً من الشعر تدعو إلى التمهل والتمعن في الأمور، وعدم اتخاذ القرارات الفورية التي ربما تؤثر على صاحبها قبل أن يأخذ في التفكير في نقضها.

والحقيقة أن التمهل والتؤدة كثير ما تكون مفيدة خاصة في الأمور التي يكون لقيامها معنى يختص بجزء من الحياة التي لا تمارس إلّا بحكمة متمخضة عن تجارب، أو عن نظام أبغضه التعامل أو بسياسة مقعدة التطبيق.

أما فيما عدا ذلك وغيره فإن التمهل ربما يفوت فرصاً تأتي كإتيان الريح إن لم يستفد منها عند هبوبها تذهب فائدتها بمجرد سكونها وتبقى الحاجة معلقة بها.

والأبيات التي سأورد بعضاً منها هي للشاعر سهيل عبد الغني عبد الله وهي غاية في النصح بالتمهل، وأسلوبها يدل على أن سهيلاً ربما كان صاحب تجربة، وأنه أراد أن تكون موعظة في أسلوب شعري لمن تغلب عليه العجلة في أمور يحسن التمهل في التعامل معها، وقد وطأها بقوله:

إلى كل متكبر جبار، إلى كل عتل جواظ، إلى كل ظالم متعال، إلى كل مغرور بقوته، معجب بسطوته، فرح بعلمه أو عمله، إلى كل عالم، إلى كل متعالم، إلى كل إنسان. من تلك الأبيات قوله:

تمهّلْ.. تمهل فما من خلودْ

ألست ترى ما جرى للجدودْ



فمعظمهم في التراب استقرَّ
وما غائب بعد موتٍ يعودْ

تمهل.. تمهل فإن العقول
محاها تعاقبُ هذي العقودْ

تمهل وأغض فإن الغضا
رماداً سيصبح بعد الوقودْ

وإن النجوم إذا شعشعتْ
سيعقبُ ما شعّ منها خمودْ

ومنها قوله:

ولا بد بعد طويل المقام
تشد الرحال وتُنْمَ القتودْ

وإن العيون التي دأبها
إباءٌ ستنساح بعد الجمودْ

ستأوي ظباءٌ إلى بيتها
وقد كان ديدنهن الشرودْ

والأبيات أكثر من ذلك فهي تبلغ ثلاثة عشر بيتاً كلها على هذا النمط المذكر بالمآل ونهاية المطاف الذي لا بد أن يسبقه تمهل يمكن من النظر في صيرورة الأمور وتحولها من حالها إلى حال.

○ ○ ○ ○ ○

بساطة الابتداء بالتدخين، وصعوبة التخلص منه!!

قد تكون بداية التدخين مجرد تقليد، أو مجاراة لشخصيات ليس من وسيلة للتقرب إليها إلّا بفعل ما تفعله من عادة التدخين.

وقد يكون الانضمام إلى رفاق كلهم يدخنون سبباً في ممارسة التدخين، وذلك سيراً على المثل العامي القائل «موت مع الجماعة رحمة».

وقد تكون الإرادة الضعيفة سبباً في تذوق شربه، مجرد تذوق فيتكرر مرة بعد أخرى حتى يصبح عادة لا مناص من ممارستها.

وإذا ما حصل الإدمان، وأصبح شربه شيئاً معتاداً لا يمكن تركه، وأخذ ضرره في الجسم يتزايد مع تتابع السنين، برزت علامات الندم على استبساط بدايات شربه، وأخذ التفكير في التخلص منه يتزايد كلما يلتقي صاحبه طبيباً يصف الأمراض السرطانية التي يكون التدخين من أسبابها الرئيسية، وعند هذا الحد يلتمس بعض المدخنين ما يساعده على تركه، فلا يجد إلّا من يقول له: ما غير الإرادة وقوة العزيمة مسلك للتخلص منه، يضاف إلى ذلك مراجعة العيادات المتخصصة في مساعدة العازمين على الإقلاع عن التدخين.

وقد يكون لتجنب المدخنين وعدم مجالستهم دور يساعد على نسيان التدخين أو تناسيه والسلو عنه.

وقرأت وصية للدكتور محمد رائد الحمدو بقراءة أبيات شعرية، أعتقد أنها من نظمه، لأنه ذيل بها موضوعاً جعل عنوانه «أما آن للمدخنين الإقلاع عن السم». ولم ينسبها لأي شاعر، وهي هذه:



لــدي فــي الــتــبــغ شــعــر
فــهــو الــعــدو الــمــضــر

الــمــال يــزهــق فــيــه
ويــرهــق الــجــيــب عــســر

وصــحــة الــمــرء تــذوي
ووجــهــه يــكــفــهــر

وإن تــبــســم يــومــاً
أســنــانــه الــبــيــض صــفــر

وصــوتــه حــشــرجــات
وريــحــه لا يــســر

وصــدره مــثــل عــش
فــيــه الــفــراخ تــمــر

وإن يــروم غــرامــاً
مــنــه الــنــســاء تــفــر

فــإن تــدعــه فــخــيــراً
وعــكــس ذلــك شــر[1]

○ ○ ○ ○ ○

(١) جريدة «الجزيرة» العدد ٩٧٣٦ يوم الأربعاء ١٨ صفر ١٤٢٠هـ.

بيت يولّد قصيدة!!!

كتب الشيخ العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمٰن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب والذي ولد بالرياض عام ١٢٢٥هـ وتوفي بها عام ١٢٩٣هـ، وقد كان عالماً فاضلاً بارعاً محدثاً فقيهاً أصولياً، أخذ العلم عن عدد من العلماء النجديين والمصرين، فمن نجد والده الشيخ الإمام العلامة عبد الرحمٰن، والشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والشيخ أحمد بن حسن بن رشيد الحنبلي، والشيخ عبد الرحمٰن بن عبد الله.

ومن مصر: الشيخ العالم العلامة مفتي الجزائر محمد بن محمود بن محمد الجزائري الحنفي، والشيخ إبراهيم البيجوري شيخ الجامع الأزهر والشيخ مصطفى الأزهري، والشيخ أحمد الصعيدي، وقد وصف الشيخ عبد اللطيف رحمه الله بأنه آية باهرة في الحفظ، وقد كان بينه وبين الشيخ أحمد بن علي بن حسين بن مشرف الوهبي التميمي الأحسائي المالكي صحبة أكيدة، فكتب الشيخ عبد اللطيف رسالة يعتب عليه فيها، وضمنها هذا البيت المنسوب لضمرة بن ضمرة التميمي وهو قوله:

وإذا تكون كريهة أدعى لها
وإذا يحاس الحيس يدعى جندب

قال إبراهيم بن صالح بن عيسى في كتابه «عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر»، وبعضهم ينسب القصيدة التي منها هذا البيت لعمرو بن غوث بن طي.

قلتُ: ولابن منظور صاحب «لسان العرب» وقفة عند معنى -



الحَيْس حيث قال: الحيس: الخلط، ومنه سمي الحَيْسُ.

والحَيْسُ: الأقط يخلط بالتمر والسمن، وقد يجعل عوض الأقط الدقيق والفتيت، وحاسه يحيسه حيساً، وحيّسه: خلطه، وفي الحديث أنه أولم على بعض نسائه بحيس.

هذا فيما يتعلق بمعنى - الحيس - أما نسبة البيت، فقد نسبه ابن منظور لهُنَيّ بن أحمد الكناني ثم قال: وقيل هو لزُراقة الباهلي، وقد ذكر البيت ضمن ستة أبيات هو الرابع من بينها «لسان العرب» ٢/ ١٠٦٩.

فرد عليه الشيخ أحمد بن مشرف بقصيدة، قدم لها بقوله: وصل كتابك وهيجنا بديع خطابك واستشهادك بالبيت القديم الذي هو لبعض بني تميم إلى نظم أبيات على تلك القافية، وهي في الاعتذار كافية.

ومن هذه الأبيات قوله رحمه الله:

الود أصدق والتوهم أكذب
فعلام تلحقنا الملام وتعتب

أتظن أنا قد جفوناكم فلا
أدري أظنك أم عتابك أعجب

الدين يأبى والمروءة والإخا
ما قد ظننت فبرق ظنك خلب

ومنها قوله:

أتقول إذ قد لمتني متمثلاً
بقديم شعر قاله من يعتب

وإذا أتتك كريهة أدعى لها
وإذا يحاس الحيس يدعى جندب

فكلاهما تدعى إليه بحول من
وهب الجزيل ووعده لا يكذب

فاصفح ولاحظنا بعين للرضى
واقبل إذا اعتذر المحب المذنب

وانظر إلى درر القريض نظمتها
يزهى بها العقد النفيس المذهب

والقصيدة تبلغ ٢١ بيتاً أوردها ابن عيسى في «عقد الدرر» الآنف ذكره.

○○○○○

التفاتة شعرية ظريفة لابن نباتة!!

وابن نباتة هو الإمام العلامة جمال الدين محمد بن محمد بن محمد بن حسن بن أبي حسن بن صالح بن يحيى بن طاهر بن محمد بن الخطيب عبد الرحيم بن نباتة المصري مولده بمصر في زقاق القناديل في ربيع الأول سنة ٦٨٦هـ وتوفي رحمه الله تعالى يوم الثلاثاء من صفر سنة ٧٦٨ بالميمارستان المنصوري ودفن خارج باب النصر بتربة الصوفية.

أما التفاتته فتتمثل في حكاية فيها من الظرف ما يمتع القارئ حرفاً بحرف، وملخصها أن بعض عمال الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال شعراً منه قوله:

أسقني شربة ألذّ عليها

واسق بالله مثلها ابن هشام

فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه، فعزله وأنكر عليه قوله هذا، فقال العامل: يا أمير المؤمنين إن لهذا البيت أخاً، وأنشد بديهاً:

عسلاً بارداً بماء سحاب

إنني لا أحب شرب المدام

فأعجب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك ورده إلى عمله.

وقد التفت ابن نباتة إلى هذه الحكاية الظرفية فاقتبسها في رثاء الشيخ جمال الدين بن هشام النحوي رحمه الله تعالى حيث قال:





يــا ولــيــاً رجــوتــه لــولاه
عــنــد دار الــدنــا ودار الــســلام

حــبــذا كــوثــر الــجــنــان ورضــوا
ن أنــاديــه يــا مــضــيــف الــكــرام

أســقــنــي شــربــة ألــذ عــلــيــهــا
واســق بــالله مــثــلــهــا ابــن هــشــام

والحقيقة أن هذه الحكاية وما يماثلها مما جرى لأسلافنا في حياتهم من مواقف فيها من الذكاء والفطنة ما يجعلها من لباب الأدب، تطل علينا بوجه مشرق نقرأ في ملامحه نقاء وعذوبة تراثنا الأدبي.

وأما ما لابن نباتة من ظرافة خاصة به، فمنها أن الصاحب أمين الدنيا قد جعل ابن نباتة أميناً على متحصل بلد قمامة، وأرسل له أضحية، فقال ابن نباتة:

أمــولانــا الــوزيــر تــهــنّ عــيــداً
ســعــيــداً وابــق ذا عــزّ وعــزم

ولا زالــت هــبــاتــك بــالــضــحــايــا
وبــالأشــغــال قــائــمــة بــرســمــي

تــبــلــغــنــي قــمــامــة كــل يــوم
وتــجــعــل فــيــه بــيــتــي بــيــت لــحــم[1]

○○○○○

(١) «ديوان ابن نباتة» ٤٦٤، ٤٦٥.

نهج البردة، واللولآت الشوقية

ونهج البردة هو عنوان قصيدة للشاعر المصري أحمد شوقي المتوفى سنة ١٩٣٢م والذي نصب لإمارة الشعر بعد أن ظل الشعر بلا إمارة منذ عهد امرئ القيس الشاعر الجاهلي.

وقد أفرغ شوقي في نهج البردة شاعريته فأصبحت من عيون القصائد وفرائدها، حيث جاءت في أحسن ما يكون من السبك والحبك، وأبدع فيها أيما إبداع حيث ملأها من جواهر الألفاظ وفرائد الكلمات ما جعلها تشع نوراً وتتلألأ ضياءً، وكيف لا تتكامل فيها الصورة المطربة ومحورها مديح سيد البشر محمد ﷺ، وقد استهلها بأبيات غزلية كعادة من تأمر عليهم امرئ القيس ومن سار على نهجهم واستحسن طريقتهم، وقد وفق شوقي إلى مطلع رنان هو غاية في عذوبة الغزل:

ريم على القاع بين البان والعلم
أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

وهو وإن كان مطلعاً فهو يمثل قصيدة كاملة، وقد تخلل نهج البردة أبيات حكمة هي نتاج تجربة وحصيلة معرفة، ولا أريد الوقوف على كل بيت فيه حكمة لأنني قد استهدفت الوقوف على بعض الأبيات المبدوءة بـ«لولا»، وهي قوله:

لولا يد اللّه بالجاريْن ما سلما
وعينه حول رُكن الدين لم يقم

تواريا بجناح اللّه واستترا
ومن يَضُمّ جناح اللّه لا يُضم

يعني عناية الله بهما في الغار، ثم التجاور في القبور، وقوله:

لولا حُماة لها هبوا لنصرتها
بالسيف ما انتفعت بالرفق والرُّحم

لولا مكان لعيسى عند مرسله
وحرمةٌ وجبت للروح في القدم

لسُمِّر البدن الطُّهرُ الشريف على
لو حين لم يخش مؤذيه ولم يجم

يعني الديانة المسيحية، وما فيها من رهبنة وخروج على عيسى عليه السلام ومحاولة صَلبه من قبل اليهود المتسترين بالمسيحية، وقوله: لم يجم، أي: لم يفزع.

وقوله:

لولاه لم تر للدولات في زمن
ما طال من عمد أو قر من دعم

يعني بقوله ـ لولاه ـ الرسول ﷺ، وقوله:

لولا مواهب في بعض الأنام لما
تفاوت الناس في الأقدار والقيم

وهذا قياس في تفاوت شرف مقامه ﷺ ومقام سائر الناس وهو بيت يشع حكمة بنصه ومعناه.

○ ○ ○ ○ ○

وجوب المعارضة في الشعر

من القصائد ما يكون ذا معنى منفتح لا ينغلق في وجه معارض أو ناقد.

ومنها ما يكون هدفاً لمفتاح المعارضة الدعابية التي لا تخلو من إشارات تصويبية ذات أسلوب ممتع.

ولقد وقفت في الآونة الأخيرة على موضوع كتبه الكاتب محمد الجلواح من الأحساء في «المجلة العربية» العدد ٢٦٨ جمادى الأولى ١٤٢٠هـ جاء فيه أنه تلقى من الأديب الشاعر الكويتي أبياتاً أظهر فيها كراهية الزوج لزوجته حينما تكون مدخنة، من تلك الأبيات قوله:

تقول وقد رأتني غير راض
عن التدخين سيدة الحسان

رأيتك تكره التدخين قل لي
أتكرهني بحبي للدخان

فقلت لها أحبك رغم أني
أعاني من دخانك ما أعاني

ولا أخال الشاعر فاضل إلّا واضعاً نفسه في موضع تصوري فقط، ليعالج قضية انتشرت بين بعض النساء، لكن الكاتب محمد الجلواح أراد أن يدخل من زاوية المعارضة ليصل بالموضوع لفت انتباه الزوجات إلى مدى كراهية أزواجهن لممارسة عادة التدخين لما فيها من ضرر بالغ على الصحة، فقال في بعض أبيات معارضته الدعابية:



أراك أطعت «سيدة الحسان»
وأحببت اللفائف في الدخان

وأبدلت الرضاب بمر ريق
و«كحات» و(مط) باللسان

وكان الحب (نيكوتين) حب
و(قطراناً) يفح كأفعوان

وكبريتاً يحرق كل شيء
ويترك في الورى كل الهوان

فيا قلماً كويتياً أجبني
أحقاً تلك (سيدة الحسان)

ووجوب مثل هذه المعارضة في الشعر يعد شيئاً مهماً في تعميق عرض الحالات الاجتماعية المنبوذة، ليحصل التخلي عنها لعدم موافقتها لعاداتنا وتقاليدنا العربية والإسلامية، ولصيانة صحة أفراد مجتمعنا.

والحقيقة أن هذه الصورة وأمثالها في أدبنا المعاصر ستكون في يوم من الأيام أدباً يقرؤه أسلافنا من بعدنا.

○ ○ ○ ○ ○

من اللعب بالألفاظ ما يولّد رقائق الشعر وأحاسنه

ورقائق الشعر ونعومة كلماته كثيراً ما تكون وليدة التلاعب بالألفاظ في أساليب الغزل الذي ليس فيه للتخيل ولا للتصنع وجه ولا وجود، وإنما هو من نبع العشق الحقيقي، وفيض الغرام المتدفق من أعماق النفس.

وإنك لتعجب كل العجب حينما تقرأ ما تنسجه بعض قرائح الشعراء من أشعار تسيل رقة، وتذوب عذوبة في فم متذوقها. حيث تعبق بروائح الهوى الصادق، الذي يحرك سويداء القلب ويجعل منه آلة يدير محورها التتيم الذي لا يعرف طريقاً غير طريق الوله، ولا حديثاً غير حديث التأوه.

قال أحد الشعراء الذين لهم تحكم وقدرة على صياغة رقائق الشعر:

صبحته عند المساء فقال لي
تهزي بقدري أو تريد مزاحا

فأجبته إشراق وجهك غرني
حتى توهمت المساء صباحا

أما ديك الجن فيصف ولهه بقوله:

ولي كبد حرّى ونفس كأنها
بكف عدو ما يريد سراحها

كأن على قلبي قطاة تذكرت
على ظمإ ورداً فهزّت جناحها



وقال شاعر آخر:

وقــالــوا دع مــراقــبــة الــثــريــا
ونــم فــالــلــيــل مــســعــود الــجــنــاح

فــقــلــت وهــل أفــاق الــقــلــب حــتــى
أفــرق بــيــن لــيــلــي والــصــبــاح

ويقول شاعر آخر:

يقولون لي والدمع حرق مقلتي
بنار أسى من حبة القلب تقدح

أدمعك جمر قلت لا تتعجبوا
فكل وعاء بالذي فيه ينضح

كل هذه النماذج السائرة على قافية ـ الحاء ـ تدخل في مفهوم رقائق الشعر وأحاسنه، وإن كان فيها بعض عنف الوصف لواقع حال الشاعر، لكن مسحة الغزل الصادق، والمعاناة في بعضها من الجفوة قد جعلت من أسلوبها مذاقاً عذباً للقارئ المتذوق صدق أحاسيس الشاعر وتفنن مذاهبه في وصف حاله.

○ ○ ○ ○ ○

إساءة أدب اللباس في الحرم!!

وشعراء الإسلام يكون لهم غيرة حادة على محارم المسلمين خاصة إذا رأوا ما لم يكن موافقاً لتقاليدنا الإسلامية، وعاداتنا الاجتماعية.

والشاعر الغيور حينما يرى ما يخالف العقيدة يطلق العنان للسانه ليتخذ منه سلاحاً يشهره في وجه من يتساهل بآدابنا الإسلامية، وتعاليم ديننا الحنيف، ويسيء آداب اللباس في بيت الله الحرام.

رأى الشاعر السعودي المعاصر عبد العزيز إبراهيم السراء في بيت الله الحرام امرأة ترتدي ما لم يكن معتاداً ارتداؤه في الحرم من قبل نساء المسلمين، فنظم قصيدة استهلها بأبيات أحسبها غزلية بحتة، لكنه جعل منها مقدمة يحقق بها رؤيته لما ليس بموافق لآدابنا الإسلامية، منها قوله:

ظباء مكة لا يقتلن في الحرم
ما بالهن قتلن الليث معتمراً

رمينني بسهام العين صائبة
وكنت أحسب في الإحرام مستترا

نظرت نظرتي الأولى على أمل
برخصة فجنيت الويل والخورا

كأن عيني في الأشراك قد علقت
يا ويح صائدة لم تخطئ القدرا

وبعد هذه النظرة التي حقق بها رؤية ما لم يحسن رؤيته ألقى



اللوم على تلك المرأة التي ارتدت (جنزاً) وأخذت تطوف بالبيت الحرام:

يا أختنا ما عهدنا (الجينز) في حرم
ولا النقاب ونصف الخد ما سترا

والجنز: بنطلون يصنع من قماش خاص يعرف به، وارتداؤه موضة انتشرت في أمريكا، وأوربا، وكان نصيبنا منها التقليد.

ويمضي الشاعر في قصيدته تلك لينبّه المرأة المرتدية هذا الزي من اللباس أن أعين الناس ترى مفاتن جسدها:

العين تسرق كنزاً غير محترز
والأنف يغوى إذا شم الشذا عطرا

ويقول: إن مما يزيد الفتنة بها أنها متجملة متخضبة وتزاحم الرجال لتقبل الحجر الذي ليس بالمفروض تقبيله:

فللخضاب بكف أومأت فتن
فكيف تزحمني كي تلثم الحجرا

ويقول: إنها بفعلها هذا وتبرجها تفسد على الناس أنساكهم:

جنيت في الحل من جهل ومن زلل
وكنت أحسبني في البيت معتبرا

وقد قرأت القصيدة في مجلة «الشقائق» العدد ٢٣ جمادى الأولى ١٤٢٠هـ.

○○○○○

الإفلاس من وجود القرطاس

والقرطاس بطبيعته يشكل ثلاثياً في مجال التدوين والكتابة، فبالكاتب وبالقلم وبالقرطاس يتم التدوين ويحصل التأليف، وتسير المعاملات الكتابية والحسابية، وأهمية القرطاس في هذا الثلاثي تكمن في أنه إذا عدم وجوده لدى الشاعر أو الكاتب ضاعت خواطره التي يحرص على تدوينها.

والحقيقة أنه كم دارت بخلد الشاعر من خاطرة شعرية فضاعت منه لعدم وجود قرطاس يقيدها به.

وكم خاطرة ترد على الكاتب ورود ظامئ الطير على الماء، فتضيع منه بسبب عدم القرطاس لديه. ولعله من المناسب أن نستظرف في هذا الموضوع بشيء مما خلفه أسلافنا من أدبيات قلة القرطاس. فمن الطرائف المضحكة في ذلك، ما حدث به أحمد بن محمد الأنصاري، حيث قال: حدثنا أبو العيناء عن الجماز قال: أراد أبو نواس أن يكتب إلى إخوان له فلم يجد شيئاً يكتب فيه، فحلق رأس غلامه وكتب عليها ما أراد، وفي آخرها كتب: وإذا قرأتم الخطاب فاحرقوا القرطاس، قال: فردوه بلا جلدة رأس.

وذكر أبو نواس القرطاس في بعض أشعاره فقال:

لم يقو عندي على تخريق قرطاسي
إلا فتى قلبه من صخرة قاسي

إن القراطيس من قلبي بمنزلة
تكون كالسمع والعينين في الراس



لولا القراطيس مات العاشقون معاً
هــذا بــغــم وهــذاكــم بــوســواس

وذكر شاعر محب القرطاس وما تلقاه فيه من محبوبته من معاتبة هيجته وذكرته بعهد له مضى معها:

جاء الـرسـول بـقـرطـاس فـهـيـج لـي
شـوقـاً وأحـبـبـت مـنـه كـل قـرطـاس

فـيــه مـعــاتـبــة مـنـهــا تـذكـرنـي
عـهـد الـوصـال كـأنـي غـافـل نـاس

وذكر الصولي في كتابه: «أدب الكاتب» أن أبا عبد الله الأسياطي قال: كان رجل من الكتاب يهوى مغنية، ويكاتبها، فكانت تخرق كتبه وتأمره بتخريق كتبها، فكتب إليها: إني أحتفظ بكتبك، وتتهاونين بكتبي فتخرقيها، فكتبت إليه:

يـا ذا الـذي لام في تـخـريـق قـرطـاس
كـم مرّ مثلك في الدنيا على راسي

الـحـزم تـخـريـقـه إن كـنـت ذا نـظـر
وإنـمـا الـحـزم سـوء الـظـن بـالـنـاس

إذا أتـــاك وقـــد أدى أمـــانــتـــه
فـاجـعـل كـرامـتـه دفـنـاً بـأرمـاس

فكتب إليها الصواب رأيك وخرق رقاعها، «أدب الكاتب» ١٠٧ ـ ١٠٩.

○ ○ ○ ○ ○

في داخل المكتبة وقفة تأمل مؤلمة!!

تمر بي بعض السويعات وأنا داخل مكتبتي الخاصة، لا أقرأ ولا أكتب، وإنما أتأمل وأُنقِّل بصري بين رفوفها، وأمعن نظري في ألوان أغلفتها التي تشكل في منظرها العام لوناً أرقطاً، إذ فيها الأسود والأبيض والأحمر والأخضر والبني والأصفر المذهب وغير ذلك من صنوف الألوان المتمازجة، وأمامها أسائل نفسي عن مدى حبي لها، وقد نسيت بوجودها كل ما أنفقته في سبيل الحصول عليها، وتغمرني الإجابة بالسعادة التامة والراحة الكاملة لكونها قد باتت في حوزتي والحمد لله.

والحقيقة أنني أكاد أجزم بأن كل صاحب مكتبة خاصة يشعر بمثل شعوري هذا تجاه كتبه التي هي جزء من حياته، وأن محبته لها كمحبته لأولاده سواء بسواء.

وتنقلني الخواطر والهواجر وأنا أطوف في أرجاء مكتبتي على جسر ممتد بين الحياة والموت، فتحدثني نفسي في بعض الأحيان حديثاً تساؤلياً فحواه: هل يا ترى أن هذه الكتب ستكون في حوزة غيري يوماً من الأيام؟ وأنه سيقلبها شخص غيري؟ وأجيب على هذا التساؤل (بنعم) فمثل ما قلبتها بعد من سبقني فسيقلبها من يأتي من بعدي، - وهذه هي سنة الحياة - سلف وخلف وتابع ومتبوع.

ولقد ترجم هذه المشاعر والإحساسات بعض الشعراء، وأكدوا على حقيقتها. وذلك مثل قول الشاعر يوسف بن سليمان القرشي:

أي كتباً قد طال في جمعها جهدي

وزاد إليها قبل تحصيلها وجدي



تمنيتُ نظرةً فحرمتها

وجاءت عقيب المنع عفواً بلا كدِّ

فأصبحتُ فيها ناظراً متحكماً

جواداً بما فيها على الصادق الودّ

أقلّبها من بعد غيري محكّماً

فيا ليت شعري من يقلبها بعدي

ونظر الشاعر نصر بن عبد الرحمٰن الفزاري إلى كتبه فخالجه الإحساس الذي خالج يوسف بن سليمان القرشي فقال مثل قوله:

أقلب كتباً طالما قد جمعتها

وأفنيتُ فيها العينَ والعين واليدا

وأصبحت ذا ضنٍ بها وتمسكٍ

لعلمي بما قد صغتُ فيها منضدا

وأحذر جهدي أن تُنالَ بنائل

مبير وأن يغتالها غائل الردى

وأعلم حقاً أنني لست باقياً

فيا ليت شعري من يقلبها غدا

تلك لمحة عابرة عما يخطر من خاطرة حينما ينظر المرء إلى أثمن وأعز مقتنياته من الكتب وغيرها، والله المستعان وإليه الرجوع ولوجهه البقاء.

○ ○ ○ ○ ○

أنور عشقي ينتصر بشعره للسجناء!!

كتب الدكتور عاصم حمدان في ملحق الأربعاء ٢٩ ذي القعدة ١٤١٩هـ موضوعاً أمعنت النظر في قراءته، لأنه محص بأسلوبه الفني سيرة الشاعر السيد أنور بن مصطفى بن عمر عشقي المولود عام ١٢٤٦هـ والمتوفى عام ١٣٣٦هـ من أهالي المدينة المنورة، وأضفى عليها بتعليقاته جمال الوقفات الأدبية، حيث روى عن محمد سعيد دفتر دار رحمه الله قوله: إنه كان للسيد أنور ناد خاص أعده في ديوان بستانه المعروف قرب بثينة الوداع في سفح جبل سلع «بباب شامي» بالمدينة المنورة، وأنه من شدة عنايته ببستانه كان من أجمل منتزهات المدينة المنورة وأنضرها، ويجتمع إليه أصدقاؤه من الأدباء والأعيان، فساومه بعض الأثرياء على شرائه منه بمبلغ مغر ولكن السيد أنور كان يعتز ببستانه فلم يقبل ببيعه.

وروي عن الدفتر دار أيضاً أن حادثاً حدث في محافظة المدينة، ولم يرضى بظلمه أهل المدينة وقاوموه، فأمر السلطان عبد الحميد آنذاك بإبعاد أربعين رجلاً من أهل المدينة إلى الطائف، وسجنوا في قلعة (مدى) بالطائف، ومكثوا في سجنهم ثمانية عشر شهراً.

فأنشأ السيد أنور عشقي قصيدة شعرية يعبر فيها عن الظلم الذي لحق بهم من الوالي العثماني عبد الحميد، وشيخ الحرم من الأغوات.

وهذه هي القصيدة:

نساق للسجن لا جرم نُدان به

إلّا تلافيق زور من ذوي الفتن



كنا نطالب بالعدل الذي حُرمت

منه المدينة دار العدل والمنن

أي الذنوب اللواتي نستحق بها

هذا العقاب سوى الأغراض والإحن

ما ضَرّنا غير قول الشامتين لنا

ذوقوا جزاءكم في السجن والوهن

قضت علينا الليالي وهي ظالمة

بُعداً عن الأهل والإخوان والوطن

قاض تهور في أحكامه فقضى

بما يصوره الواشون من درن

فكيف يقضي بما تملي غباوته

ألا يفرق بين الخمر واللبن

ما كان بالحكم الترضى حكومته

ولا على الشر والنجوى بمؤتمن

وصدر البيت الأخير مأخوذ من قول الشاعر الأموي الفرزدق:

ما أنت بالحكم الترضي حكومته

ولا الأصيل ولا ذي الرأي والجدل

وقد قيل: إنه كسر بذلك قاعدة نحوية مفادها عدم دخول الألف واللام على الفعل «الترضى». أما السجناء فقد أطلق سراحهم السلطان عبد الحميد سنة ١٣٢٧هـ بعد تعرضه لحادث وهو خارج من قصره لصلاة الجمعة.

○○○○○

ابن عيسوب ما انقطع من الحياة بموته

ما أكثر الجنائز التي نشهدها كل يوم محمولة أنعشها فوق أعناق الرجال. وكلها تموت أخبار أصحابها بموتهم إلّا من ترك أثراً من الآثار التي لا تنقطع بسببها صلته بالحياة بل وبالأحياء الذين يعيشون من بعده.

وكتب التراث، وخاصة منها كتب السير والتراجم، تحقق لنا ذلك بكل صدق، وليس أدلَّ من ذلك من قول رسولنا ﷺ: «يموت ابن آدم وينقطع عمله إلا من ثلاث، علم ينتفع به أو صدقة جارية، أو ولد يدعو له». أو كما قال ﷺ.

وها نحن نقف على علم من أعلام التاريخ والأدب، والذي لم تنقطع صلته بالحياة بسبب موته، إنه الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله آل مفلح الجذالين، الذي ولد بمدينة ليلى قاعدة منطقة الأفلاج بنجد، قلب المملكة العربية السعودية في رجب عام ١٣٣٦هـ وكان يلقب بابن عيسوب، وكانت وفاته عليه السلام في ١٢/٢/١٤١٥هـ، وقد رثي نثراً وشعراً، وذكرت مآثره وأعماله.

قرأت ما كتبه سعد بن محمد المفلح في ملحق الأربعاء بجريدة «المدينة» يوم ٨ جمادى الآخرة عام ١٤١٦هـ تحت عنوان: «لمحات من حياة الشيخ عبد الله المفلح مؤرخ الأفلاج، وعالمها الأول» فذكر أن له مساهمات قلمية في الصحف والمجلات، وعدد أعماله الأدبية وهي:

١ ـ «شجرة نسب الجذالين» عملها سنة ١٣٨٨هـ.

٢ ـ كتاب «الجذالين نسبهم وموجز تاريخهم».

٣ ـ كتاب «تاريخ الأفلاج وحضارتها».



وذكر سعد المفلح فيما كتبه بعضاً من المراثي الشعرية التي رثى بها ابن عيسوب، أنقل منها ما أختم به هذا الموضوع وهو قول الشاعر سعد بن ثلاب:

هـكـذا الـدنـيـا نـزول وارتـحـال
ومـصـيـر الـمـرء فـيـهـا لـلـزوال

كـل إنـسـان عـلـيـهـا هـالـك
كـتـب الـمـوت ويـبـقـى ذو الـجـلال

فـقـدت (لـيـلـى) عـزيـزاً عـالـمـاً
عـلـم يـعـلـو كـأعـلام الـجـبـال

ودّعـت شـيـخـاً جـلـيـلاً زاهـداً
ابـن عـيـسـوب عـدواً لـلـضـلال

لا يـحـب الـكـبـر مـن عـاداتـه
طـبـعـهُ سـهـل ومـمـدوح الـفـعـال

لا يـمـل الـنـاس مـن مـنـطـقـه
فـاضـل الأخـلاق مـحـبـوب الـفـعـال

يـا إلـهـي اغـفـر الـذنـب لـه
واسـقـه مـن سـلـسـبـيـل وزلال

خـتـمـهـا صـلـوا عـلـى قـائـدنـا
كـلـمـا هـلّ مـن الـغـرب هـلال

○ ○ ○ ○ ○

جد جد الشبح

والشبح هو اسم أطلق على نوع من سيارات «مرسيدس بنز» التي صنعت من بعد عام ١٩٩٨م وبلغت قيمة الواحدة منها ستمائة ألف ريال، بل وأكثر من ذلك.

أما ما سميته بالاصطلاح جد جد الشبح فهو كل ما كان مصنوعاً من عام ١٩٩٥م وما قبله من ذلك النوع.

وسيارتي «المورسيدس ذات الحجم ٢٠٠ والمصنوعة عام ١٩٨٥م تعدّ من أجداد الشبح سافرت بها في رحلة من الرياض إلى منطقة سدير في صيف عام ١٤١٩هـ وفي أثناء الطريق وجدت شبحاً واقفاً عن السير وقد وقف صاحبه إلى جانبه، وكان من عادتنا أن لا نترك واقفاً على الطريق إلّا ونسعفه بما نستطيع ووفقاً لهذه العادة، توقفت عنده وسألته عن سبب وقوفه، فقال: لقد أصيب الشبح بعطل لا أعرفه، وليست هذه هي المرة الأولى، بل لقد ذقت منه المتاعب، فهو من عطل في عطل، قلت له: لتركب معي جد جد الشبح، فإن المثل العامي يقول: «كل أول أخير من تالي» ومثل آخر يقول: «ضلع شايب ولا ضلعين من صبي»، واركب معي إلى حيث توجد السيارات التي تحمل ما يتعطل على الطريق من سيارات إلى حيث الورش الميكانيكية.

ومن طريف ما دار بيننا من حديث أن سيارتي ذات الحجم ٢٠٠ والمصنوعة عام ١٩٨٥م تعتبر جداً أو جد جد للشبح الذي أوغلت في تدليله يد التصنيع الفنية فجعلته في أرقى درجات الرقي الفني لكنها أوجدت فيه حساسية جعلته لا يتحمل مشقات السفر وتقلبات الجو كما كان يتحمله أجداده وأجداد أجداده وكل من يرتبط بعمود نسبه.

وما مضت أشهر على ذلك الحديث الذي دار بيني وبين صاحب الشبح إلّا وقد وجدتُ نفسي في ليلة من ليالي شهر ربيع الثاني من عام ١٤٢٠هـ مقبلاً على إنشاء قصيدة أمتدح بها جد جد الشبح ذي الحجم ٢٠٠، فكانت هذه الأبيات:

أيا جد جد الذي نصبوه
فأصبح السيد للسائد

فكان له هيبة في الوجود
وسموه بالشبح المارد

أعيذك باللّه من حاسد
ومن نافث السحر والحاقد

فأنت الذي إن أردتُ المضـ
ـي إلى سفر لستَ بالبائد

تشق الطريق إلى ما أريـ
ـدُ ولستُ لعزمك بالجاحد

على الزفت في الليل كالمشتري
وفي الصبح كالوعِل الشارد[1]

إذا مَرَّ عال علوتَ عليه
وثوباً كمثل المها الوارد

طعامك (زيت) وماء نقيّ
و(بنزين) وشيشة الماجد[2]

---

(١) أعني نجم المشتري. أو كوكب المشتري بالأصح.

(٢) الشيشة: هي المحطة التي تتزود منها المركبات البنزين، واسم صاحب تلك المحطة الماجد.

المماحكات الشعرية وآثارها الأدبية!!

والنفس لا تملّ من قراءة التماحن الذي يحصل بين بعض الأدباء، ويكون طابعه الأدب وسمو الخلق.

والأذن لا تمل سماع ما يروى عن الشعراء من مماحكات أدبية تستمتع بها النفس خاصة إذا وقعت بين الشعراء الذين لشعرهم طعم خاص يتذوقه الكثير من محبي الأدب المسبوك في القوالب الشعرية.

والذي يزيد القارئ شغفاً لمثل هذا الأدب، إذا كان نتاج مواقف جارية بين المتمكنين من الشعراء، وكان متبادلاً في مقطعات شعرية قصيرة وليست في مطولات تضيع فيها فكرة الحوار من جهة، وتتشعب في ذهن القارئ تشعباً يجعله يمل من قراءتها من جهة أخرى.

ومن الصور المطربة لتلك الحوارات ما جرى بين الشاعرين المعاصرين السعوديين: الشاعر يحيى توفيق حسن، والشاعر عبد الرحمٰن العبد الله العبد الكريم حيث كتب الشاعر يحيى توفيق حسن رباعية جاء فيها قوله:

فلما عزّ وصلك يا حبيبي
وسهدني وعذبني حنيني

أتيتك والدجى يرخي ظلالاً
على الآفاق والكون الحزين

وجئتك تعصر الآهات قلبي
وأخشى أن تبوح بها عيون



فـأرنـو بـاسـمـاً والـقـلـب يـبـكـي
ودمـعـي قـد تـحـجـر فـي جـفـونـي

وقد نشرت هذه الرباعية في جريدة «المدينة» يوم الاثنين ٢٨ ذي الحجة عام ١٤١٩هـ ولما قرأها الشاعر عبد الرحمٰن العبد الكريم كتب رباعية على غرار رباعية يحيى محاولاً إزالة الشجن الذي عبر عنه يحيى، يقول ابن عبد الكريم في رباعيته:

أراك تـــظـــل «والأيـــام حـــبـــلـــى
تـريـع الـنـاس بـالـغـدر الـدفـيـن»
دؤوبـاً لا تـريـم إلـى الـمـعـالـي
صـعـوداً فـوق سـلـمـهـا الـمـتـيـن
ألـسـت تـرى الـسـعـادة فـي الـتـبـاري
إلـى رفـد الـمـعـان مـن الـمـعـيـن
كـفـاك وقـد عـبـرتَ جـبـال مـوج
مـــزمـــجـــرة إلـــى بـــرّ أمـــيـــن

وقد جمع ملحق الأربعاء بجريدة «المدينة» الصادر بتاريخ ٥ محرم عام ١٤٢٠هـ الرباعيتين ونشرهما بشيء من التوضيح.

أخيراً أقول: بمثل هذه المماحكات يجب أن نثري أدبنا المعاصر لنناظر به أدب أسلافنا، وأن لا نكون مقصرين عن السير في منهجهم الأدبي.

○○○○○

تشابه الشعور وتوافق المعاناة

لو سألنا قاضياً من القضاة، هل يرفع إليه قضايا متشابهة بشكل كبير وعدد كثير، لأفاد بـ(نعم) وهذا دليل على أن شريحة كبيرة من الناس تتشابه مشكلاتهم الاجتماعية التي يتعسر حلها إلّا عن طريق القضاة.

وقد يكون لكل شريحة من الناس بيئته، وجغرافيته وانتمائه الخاص به، ولهذا فإن اختلاف البيئة، والموقع الجغرافي ربما يوجد اختلافاً في طبيعة المعاناة، وربما في المشكلات التي تقوم بين كل شعب وآخر، أو فئة وأخرى من الناس المختلفين من حيث مواقعهم الجغرافية لأن الطباع الهادئة السمحة، أو الشرسة العنيفة كثيراً ما يساهم المناخ الجغرافي في زرعها في النفوس.

لكن تجانس العقائد يقرب في كثير من الأمور وجه الشبه بين المشكلات التي تقوم بين أهل كل عقيدة.

ويبتعد بنا عن هذه الفلسفة وقوفي على قصيدة قالها الشاعر عبد العزيز شلوه الحربي وشحنها بالبوح ببعض معاناته، ونشرت في ملحق الأربعاء لجريدة «المدينة» العدد ١١٨٤٨ وتاريخ ١٨ ربيع الثاني عام ١٤١٦هـ منها قوله:

لا تقلقي إن بقيت اليوم معتكفاً
أو جئت أشكو إليك الهم والصلفا

أو صرت عن عالم الأحباب منحبساً
أو كنت عن محبس الأحزان منصرفا



سيان عندي ظلام الليل أو فلق
أضاء نوراً وأهدى للنوى التحفا

حسبي إذا ضاع مني العمر وانهمرت
مني الدموع التي تستجلب الشرفا

إني عرفت من الدنيا تقلبها
وثعلب الناس أو من كان محترفا

ولما قرأها الشاعر مقبل راشد سائد الفريدي وجد أن ما بثه الحربي فيها من معاناة هي نفس ما يجد في نفسه، فما كان منه إلّا أن جاراه بصنع قصيدة عارضه بها، منها قوله:

قصيدة أخرجت همي تفرقه
وأحضرت في قلباً كان منصرفا

سمعتها من صديق لست أعرفه
كأنه عارف ما بي إذا وصفا

يا ذا الصديق ألست اليوم تذكرني
أني أرى كل شيء عندي اختلفا

والقصيدة تبلغ سبعة عشر بيتاً في الأربعاء المحلق بجريدة «المدينة» الصادر بتاريخ ١٥ جمادى الثانية عام ١٤١٦هـ.

○ ○ ○ ○ ○

اغتيال الأزهـار

تأخذ الفلسفة في بعض الأحيان دورها في الأحاديث التي تعرض أهدافاً يصعب الوصول إليها عن طريق مباشره وآمن من الآفات التي تحبط أساليب العرض المقنع، ومن هذه الزاوية الفلسفية يأخذ الحديث عن الغاية المنشودة مساراً فضائياً واسعاً يناجي به نجم السها مناجاة مفعمة بالشكر، أو منغمة باللوم والعتاب حيث يكون الابتعاد عن أدنى المواقع طريقاً آمناً لمن يطمع في المداخلة التي ربما لا تتفق وما تميل إليه نفس من يريد أن يقول شيئاً يخشى من عدم استساغة أذن المستمع إليه.

وقد يستصعب بعضهم التحليق بخياله وبفكره نحو السها فيبحث عن زاوية في الأرض يجد فيها ما يتسع لما في نفسه من أحاديث ذات شجون بالحياة الاجتماعية التي يرى بعضهم أن هناك أيدٍ تمتد لتخدش جمالها، وتغير واقعها الذي يملأ النفوس بهجة وسروراً.

وعين الشاعر حينما ترى من يحاول العبث بجمال الطبيعة لا تغض الطرف عنه، ولا تتثاقل عن لومه، وقد يضع الصورة في غير دائرتها الحقيقية، وينقلها بذكاء إلى عالم الحيوان مثلاً وهو يقول لبني جنسه إياكم عني.

ومثل هذه الصورة المغلفة نقرؤها في أبيات صنعتها الشاعرة السعودية رقية ناظر التي صبت لومها على هرة رأتها مع أولادها الهريرات، تعبث بأزهار حديقتها.

ولا أستبعد أنها تعني بعض اللاتي يذهبن بأولادهن إلى الحدائق



المزهرة ويتركن الحبل على الغارب للأولاد الصغار يعبثون بالأزهار، يقطفونها ثم يرمون بها في الطرقات تداس بالأقدام.

من أبيات رقية بهذا الخصوص قولها:

رأيت هريرة في الروض تمشي
بنوها أفسدوا أزهار غرسي

لهم جعلت أزاهيري فراشاً
فمات الزهر من جراء بخسي

ولما استاءت الشاعرة رقية من هذا الفعل أرادت التخلص من صغار تلك الهرة.

فأزمعتُ التخلص من صغار
بلا حول يقي بطشي وبأسي

قسوتُ عليها لما أغضبتني
وأضمرت البقاء فحل نحسي

لكنها أعلنت رأفتها بأم الهريرات وأظهرت ندمها على ما فعلت بها:

وما فاتني أنها أم بقلب
كقلب الأمهات بنات جنسي

ولم أرحم أمومتها فصاحت
وصاح صغارها فاهتز حسي

ولم تك عادتي أقسو لأني
لرهبة خالقي ما ليس ينسى

وتختم الأبيات بقولها:

ندمتُ ولم يفد ندمي فإني
أخاف وربي ما قدمتُ أمسي

علمنا هو الأعلى

إذا أراد الله لأمة عزة ومنعة هيأ لها من أبنائها من يصدقون في تفكيرهم، ويجعلون من أحلام طموحاتهم أفعالاً تترجم واقعاً، وتحقق غايات نبيلة، ومقاصد سامية تبني وطناً وتنشئ دولة تخفق رايتها فوق هام النجم.

ورايتنا نحن السعوديين قد تحقق لها ذلك بحمد الله، وذلك على يد جلالة الملك عبد العزيز طيب الله ثراه.

ولا أريد هنا أن أعدد مزايا جلالته البطولية والفكرية والإصلاحية فليس هذا مجال ذلك، ولكن الذي أريد الوقوف عليه هو التوفيق لاختيار لون رايتنا (الأخضر) الذي يعدُّ من الثلاث المذهبات للحزن «ثلاث يذهبن الحزن، الماء والخضرة والوجه الحسن» هذا فضلاً عما تحمله من عبارة التوحيد والإخلاص (لا إله إلا الله) والسيف المرسوم عليها للدلالة على إقامة العدل، والنخلة الدالة على استتباب الأمن بصفة عامة والأمن الغذائي بصفة خاصة.

والحقيقة أن رايتنا قد تميزت على سائر الرايات بما عليها من عبارة عظيمة وبلونها الموحد (الأخضر) الذي لا تجد لدولة من الدول مثلها.

ولاتحاد اللون في رايتنا فلسفة من حيث الجانب السياسي، أقل ما يعنيه تميزنا في وحدة الرأي واتفاق وجهات نظرنا على السعي في إنماء مصادر حياتنا.

ولا أريد أن أصف راية من رايات الدول ذات الألوان المتعددة تعدداً تضادياً، واعتبر ذلك فلسفة تنمُّ عن عدم اتحاد نوايا من ينضوي تحتها.



أما مكانة رايتنا فهي العليا كما أراد الله لها ذلك. وصدق محبتنا لها ولوطننا قد ترجمه وما زال يترجمه أصحاب الأقلام من ذوي الاهتمام بكتابة التاريخ والأدب وذكر الأمجاد.

والشاهد من الشعر على ذكر رفعة رايتنا أكثر من أن يحصر وأكتفي بذكر أبيات من قصيدة للشاعر المعاصر أحمد الزهراني وقد عارض بها القصيدة اليتيمة - أو الدعدية - يقول في بعض أبياتها:

ناجيت رمز الحق منتشياً
يا موطني فليحفظُ العهدُ

وحضنته والشوق يلهبني
هذا رفيقي ماله ندُّ

سألوا عن جهل ألمّ بهم
ما هذه الأفكار تحتدُّ؟

ماذا نرى سيفين ما بهما
والنخلة الخضراء تمتدُّ؟

فأجبتُ والنشوى تداعبني
لله لا لن تجهل الأسد

هذا حسام الحرب نرفعه
والسيف للعدل الذي عدوا

والنخلة الشماء قامتنا
ونصيرنا رب لنا فرد

هذا الشعار شعار موطننا
أفكارهم قد راعها الرد

والقصيدة طويلة فهي تبلغ ٢١ بيتاً وقد نشرت في الأربعاء الملحق بجريدة «المدينة» الصادر يوم الأربعاء ٧ جمادى الآخرة عام ١٤١٨هـ.

أبو سنة قال عن أبي فاشا!!

وأبو سنة هو محمد إبراهيم أبو سنة، جرد قلمه يوماً فكتب موضوعاً تناول فيه حياة وأعمال الشاعر طاهر أبي فاشا، وقد نشرته جريدة «الجزيرة» في عدد ٨٤٥٦ الصادر في ١ رجب عام ١٤١٦هـ.

قال أبو سنة: عاش أبو فاشا طوال حياته علماً مرموقاً من خلال عطاء متنوع ما بين الشعر والدراما، والأوبريت، والتمثيلة الإذاعية، وقال: كان طاهر أبو فاشا بسمة دامعة ودمعة باسمة، وقد وضع شخصيته في شعره، وأشار أبو سنة إلى أنه قد صدرت لأبي فاشا مجموعة أعمال شعرية كاملة عام ١٩٧٢م تحت عنوان «ديوان طاهر أبو فاشا» وتضمنت ستة دواوين توزعت على سنوات عمره منذ مولده عام ١٩٠٨م حتى وفاته في ١٢ مايو عام ١٩٨٩م، والواوين هي: صورة الشباب عام ١٩٨٩م، والأشواك عام ١٩٣٢م، والقيثارة السارية عام ١٩٣٨م، وراهب الليل عام ١٩٨٣م، والليالي عام ١٩٨٦م، ودموع لا تجف ١٩٨٧م.

قال خليل مطران في صدر ديوان «الأشواك»: سيكون لأبي فاشا شأن في عالم الشعر، وهو مفكر جريء ومجدد من طراز الذين لا يفوتهم حسن الصوغ وجمال الديباجة.

وقال عنه الشاعر عبد العليم عيسى: لقد كان طاهر أبو فاشا أديباً شاملاً فهو شاعر وقاص، وهو باحث، وهو كاتب درامي، وهو فقيه في اللغة محيط بدقائقها وأسرارها، ولكنه كان يعتز بالشعر أكثر من سواه، وهو شاعر رومانسي مولع بالطبيعة وبخاصة طبيعة الريف المصري الذي تشرّب حبه في صباه بناحية دمياط حيث ولد ونشأ،



وهو شاعر من الشعراء الذين يغلب الطرب على إيقاعهم الشعري.

ومما كتبه من القصائد في صباه قصيدة جعل عنوانها: «وادي الأحلام» وتضمنها ديوانه «الأشواك» وقد كتبها في العشرينيات من عمره منها قوله:

واد يذوب الهمس في جنباته
جم الرؤى متناثر الأحلام

أرسلتُ في غمراته قيثارتي
وسكبت في أنغامه أنغامي

وسريتُ في الوادي المطلسم منشداً
في موكب من عالم الألهام

وخلعتُ جثماني على أبوابه
وعبرته روحاً من الأنسام

ومنها قوله:

واد تزاحمت الخواطر حوله
أشباح جن في ضمير ظلام

أرسلت فيه بصيص فكر لاغب
فطغى على ألمي وحطم جامي

ورمى بتفكيري على أشواكه
فرجعت مطلول التأمل دامي

وعرفت بالوجدان ما أعيا النهى
وأفقت من صحوي إلى أحلامي

والقصيدة طويلة فهي تبلغ نحواً من ٢٤ بيتاً منشورة ضمن الموضوع نفسه والمذكور في جريدة «الجزيرة» العدد ٨٤٥٦، الخميس ١ رجب عام ١٤١٦هـ.

كانت القصيدة سبب الحديث عن الرياضة!!

ليس لي انطباع رياضي معين يشدني إلى الانتماء إلى ناد رياضي بعينه، فأكون مثقفاً بسبب ذلك ثقافة رياضية تمكنني من الكلام عن الرياضة وما لها من شؤون وشجون، وإن كانت كرة القدم تستحوذ على انتباهي في كثير من مبارياتها.

ومع أني لست برياضي إلّا أنني أشاهد ما ينقله التلفاز من مباريات كرة القدم وأستمتع بما يكون من سجال بين لاعبي الفريقين خاصة إذا كان يحكم لعبهما أدب، وأخلاق، وخضوع لقوانين اللعب داخل الملعب فضلاً عن خارجه.

ولست ممن يقرأ الصفحات الرياضية لا لكراهية لها، ولكنني لم أكن متابعاً لها في الأصل ولا أعرف شيئاً عن خلفيات ما يكتب فيها من نقد أو انتقاد، غير أنني أمرُّ على بعض العنوانات التي كثيراً ما تكون مثيرة وجذابة في الوقت نفسه ولكنني وللسبب نفسه لا أقرأ الموضوعات التي تحتها، ولست وحدي الذي يقرأ شيئاً ويدع أشياء، فالمهتمون بالرياضة أنفسهم لا يقرؤون ما يكتب في السياسة مثلاً، وإن قرأوا ذلك، ما قرأوا ما يكتب في الأدب، ولهذا اختلف الناس في مشاربهم، وفي أذواقهم، وحتى في ملابسهم ومآكلهم.

وأُلاحظ بعض الأحيان أنه كلما فاز فريق من ناد رياضي بكأس من الكؤوس الدورية أو غيرها ظهر من مشجعيه شاعر مجيد يمجده ويثني عليه، وأحياناً نقرأ شعراً مطرباً من حيث قوة التعبير، وجودة الصناعة الشعرية.



والذي استوقفني في هذا المجال قصيدة قالها الشاعر زين عبد الله الخواجي اتسمت بجزالة المعنى وقوة المبنى كيف لا وقوله منها ممجداً لنادي الأهلي السعودي الذي فاز بكأس الملك.

ابسط يديك فقد بنيت وفاقاً
وارفع شعارك عالياً خفاقاً

سطرت للتاريخ مجداً خالداً
يسبي العقول ويملأ الآفاقا

حيوا معي بطل الكؤوس فإنه
قد عاد فذاً مرعباً عملاقا

ومنها قوله:

وأتيت يعلوك التفاؤل والنقا
لا تشتكي عجزاً ولا إخفاقا

الحلم أن تحظى بكأس مليكنا
فتعلنا فيها السرور دهاقا

ومنها قوله ممتدحاً مجلس إدارة النادي الأهلي:

يا قائد الأهلي الأبي تحية
أهلكت مالك للحبيب صداقا

ضحيت من أجل الفريق بصحة
أغلى فبعدك يخرس العشاقا

ويختمها بقوله:

يا قلعة الأمجاد حبك في دمي
يجري وهل بعد الغرام فراقا

والقصيدة طويلة؛ فهي تبلغ ٢٠ بيتاً قرأتها في جريدة «المدينة» العدد ١٣٢١٦ السبت ١٢ ربيع أول عام ١٤٢٠هـ.

وقفة شاعر على مَعْلَم خالد

وكثيرة هي المعالم التاريخية الخالدة في كثير من البلدان، وكثيرة هي أيضاً الوقفات التي يقفها الشعراء أمام معالم بلدانهم، ويأخذون في مخاطبتها مخاطبة تغلب عليها المساءلة عن ماضي الدهر وعمن عايشه من الناس قبلهم، وهذه الوقفات تعد في حد ذاتها مسلكاً مهما في تاريخ الأدب حيث أوجد رافداً أدبياً وتاريخياً مكّن اللاحق من الناس من معرفة العصور الماضية بل حمله على قراءة تراجم البلدان سواء كانت شعراً أو نثراً، بل وقرأ كل ما سطره الزمن على صفحة ذلك المعلم الخالد الذي حقق بطبيعته وبخلود وجوده كل تصور يربط الحاضر بالماضي.

وذكر المعالم التي وقف أمامها الشعراء لا حصر لها، ولكن الذي كان من نصيب هذا الموضوع هو وقفة الشاعر السوري شفيق الكمالي المولود في بلدة أبي كمال بسوريا عام ١٩٣٠م وتدرج في التعليم حتى حصل على رسالة الماجستير من جامعة القاهرة، وكان له نشاط إداري وأدبي، فقد عين وزيراً للشباب ثم للإعلام، ثم أصبح أميناً عاماً لاتحاد الأدباء والكتاب العرب، وقد أصدر دواوين شعرية، منها رحيل الأمطار، وهموم مروان وحبيبته الفارعة، وأثنى عليه الشاعر السعودي المعاصر عبد الله القرشي، وشكره على كتابة مقدمة ديوانه «رحيل القوافي» والمعنى بذلك القرشي.

قلت: إن الوقفة التي كانت من نصيب هذا الموضوع هي وقفة الشاعر السوري شفيق الكمالي في نهر بردى، وهي وقفة تمخضت عن

قصيدة جعل عنوانها «يا شام منك ابتدأنا» وهي قصيدة طويلة. قال في إحدى مقاطعها:

يا ضفتي بردى كما حال بينكما
لون المياه وما أنكرت صفو كما

يا ضفتي بردى بيني وبينكما
خيط إذا أنبتّ أدمى خافقي ألما

أخشى عليه كما أخشى على ولدي
والصدق في العشق حال تورث السقما

يا ضفتي بردى تجري بأوردتي
أمواجه كلما فاضت نزفت دما

ألزمت نفسي عشق الشام لا كدر
يصدني لا ولا عايشته برما

يا ضفتي بردى لست المساوم في
حبي وكم أورثتني جرأتي تهما

عايشت ظلكما عمراً ففيأني
وألهبت كل شمس هامتي ضرما

حالين، حالى رضى أصفو وتدركني
حال تحيل هدوء الروح مضطرما

ولو عرجنا بالحديث على ذكر نهر بردى لطال بي ذلك، وامتد ليشمل عدداً من أصحاب الأقلام من الكتاب والشعراء الذين ألهمهم كل معلم خالد صناعة قصائد عدت من عيون الشعر وفرائده، ولكنني أكتفي في هذه الوقفة عند هذا الحد وبهذا المقطع الشعري لشفيق الكمالي، آملاً أن أعود إلى ذكر المعالم الخالدة في موضوعات لاحقة إن شاء الله.



الناس فئات أمام بعض القصائد!!

[١]

وبعض القصائد تفرض بذاتيتها وتعملق نصها وأحكام صنعتها وقوف الناس عليها وقوفاً تختلف فيه النظرات في معانيها ولغتها الشعرية، بل وتجعلهم أمامها فئات متباينة المقاصد في الشرح والتعليق عليها، أو حتى الاكتفاء بحفظها لمساسها بجوهر الحياة الاجتماعية التي تأخذ فيها الحكمة دوراً تستفيد منه الفئة التي تدير شؤون حياتها بما يمليه عليها الحكماء وأصحاب التجارب.

والحقيقة أننا لو عرضنا فريدة من فرائد القصائد على كثير من الناس لظهر لنا انقسامهم فيما يقولونه عنها وذلك لما تحويه من مفاهيم لا تتفق مع جميع وجهات نظرهم، فالحكيم يرى فيها حكمة لا يراها غيره، والفيلسوف يلتمس من الفلسفة، وطالب المشورة يجد فيها ما يخرجه من مشكلته، والباحث عن جمال اللغة وعن البلاغة يجد فيها ضالته، والملتمس لتجليات الخيال والإبداع في رسم الصورة يجد فيها ما تطرب له نفسه.

وأمثال هذه القصيدة كثيرة في كتب الأدب، وطالما أن الأمر يحتم علي إيراد شاهد على ذلك فهاأنذا أختار أبياتاً من قصيدة رائعة لابن المقري إسماعيل بن أبي بكر المتوفى سنة ٨٣٧هـ، وهي قوله في الصمت وفوائده، والثرثرة ومضارها وسوء عواقبها:

زيادة القول تحكي النقص في العمل
ومنطق المرء قد يهديه للزلل



ووصف السكوت بالذهب والكلام بالفضة، فقيل في المثل: إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب.

ويقول ابن المقري في بيت آخر أنه مهما بلغ عقل الإنسان من الكمال فإنه يحتاج إلى مشورة مثلما تحتاج المرأة للرجل:

عقل الفتى ليس يغني عن مشاورة
كعفة الخود لا تغني عن الرجل

ويقول في التنبيه على إجراء التجربة على من يظهر الود بلسانه لتعرف حقيقته ويؤمن خداعه:

ولا يغرنك ودٌّ من أخى أمل
حتى تجربه في غيبة الأمل

ويقول في الحث على توطين النفس، والأخذ بمبدأ الصبر في كل الأمور:

لا تحزنن على ما نلت حيث مضى
ولا على فوت أمر حيث لم تنل

فليس يُغني الفتى في الأمر عدته
إذا تقضت عليه مدة الأجل

ويقول محذراً من تتبع سقطات الناس، ومذكراً بأن الأيام دول بين الناس وأنه ربما يتتبع الناس سقطاته يوماً ما:

لا تفرحنَّ بسقطات الرجال ولا
تهزأ بغيرك واحذر صولة الدول

إن تأمن الدهر أن يعلي العدو فلا
تستأمن الدهر أن يلقيك في السفل



ويقول مشيراً إلى وجوب مراجعة العقل واستحضاره في الجدل ليصح القول:

أحــق شــيء بــرد مــا تــخــالــفــه
شهادة العقل فاحكم صنعة الجدل

والقصيدة طويلة وسوف يكون لي وقفة أخرى مع بقية أبياتها إن شاء الله.

○○○○○

الناس فئات أمام بعض القصائد

[٢]

في موضوع تقدم أشرت إلى أن الناس ينقسمون أمام القصيدة الفريدة إلى عدة فئات، وذلك بحسب ما تحويه من مفاهيم تتكيف مع مدارك قرائها مهما اختلفت وتنوعت مفاهيمهم لمعانيها.

ولو أردت أن أختصر وصف القصيدة التي تتكيف معانيها مع مفاهيم جميع قرائها، وتحظى بترشيح مؤلفي نوادر القصائد وعصماواتها لها، لما وجدت لوصفها شيئاً أقرب وأنسب من الروضة المعشبة التي تجد فيها كل عين مبصرة ما يستميل رؤيتها، ويناسبها من ألوان الأزهار والثمار.

وبما أن هذه هي الوقفة الثانية على قصيدة ابن المقري إسماعيل بن أبي بكر المتوفى سنة ٨٣٧هـ، فسأحاول هنا إيراد بعض ما تضمنته أبياتها من حكمة وفلسفة وتوجيه وإرشاد، وذلك مثل قوله في أسلوب تنبيهي إلى أن المرء لا تعرف قيمته إلا بما يحسنه من صنعة:

وقيمة المرء فيما كان يحسنه
فاطلب لنفسك ما تعلو به وسل

ويؤكد على أن الإقتار إذا وافق الكسل، داء ليس له دواء:

فكل داء دواه ممكن أبداً
إلّا إذا امتزج الإقتار بالكسل

ويوصي بأن صيانة المال حتى ولو ورثه العدو، أفضل من أن تلجأ ولو في الأكل إلى الإخوان:



والـمـال صـنـه وورثـه الـعـدو ولا
تـحـتـاج حـيـاً إلـى الإخـوان فـي أكـل

وخـيـر مـال الـفـتـى مـال يـصـون بـه
عـرضـاً ويـنـفـقـه فـي صـالـح الـعـمـل

ويرى أن المعروف طوق جميل في عنق من يقدر قيمته ويشكره، ومن لم يكن له شاكراً صار غلاً في رقبته:

إن الـصـنـائـع أطـواق إذا شـكـرت
وإن كـفـرن فـأغـلال الـمـنـتـحـل

ويحقق أمراً في صواب معاتبة الإخوان معاتبة تبتعد بهم عن الحقد وتنقّي ما بينهم من أجواء المودة، ويكون سلم تسامح لا مفتاح تباغض وتشاحن ومعاداة، وهو بذلك يؤيد قولهم: «العتاب لا يفسد وداً»:

ظـواهـر الـعـتـب لـلإخـوان أهـون مـن
مواطن الحقد في التسديد للخلل

دع الـجـمـوح وسـامـحـه بـكـلٍ ولا
تركب سوى السمح واحذر سقط العجل

ويعرض نصيحة يؤيدها صدق التوقع، ويصدقها واقع التجربة، حتى لا يخاطر أحد بنفسه في الدخول في أمر قد رأى بعينه سوء عاقبته فيمن حاول النجاة منه ولا تحين منه نجاة:

لا تـشـربـنّ نـقـيـع الـسـم مـتـكـلاً
على عقاقير قد جربن في العمل

والقصيدة طويلة فهي تبلغ نحواً من ٣٢ بيتاً كلها على تلك الوتيرة من إبداء الرأي وعرض النصيحة.

○ ○ ○ ○ ○

العبادي يعود بي إلى قصيدة: أسرجتُ قلبي في هواه!!

قرأت في «الأربعاء» الملحق بجريدة «المدينة» بتاريخ ٢٩ ذي القعدة ١٤٢٠هـ قصيدة عنوانها: «أسرجت قلبي في هواه» وراودتني نفسي في الوقوف عندها، وإيجاد موضوع عن حسن رصف أبياتها وجمال لغتها، وقوة سبكها، وتميز شاعرها في اختيار بحرها، فلم تستجب لرغبتي حين ذاك.

لكن الكاتب علي بن حسن العبادي الذي أشاد بها وبصاحبها الشاعر جاسم محمد عساكر، حملني على العودة إلى قراءتها مرة ثانية.

وكان الأديب المعروف والناقد البارع علي العبادي قد كتب موضوعاً في العدد ١١٣٥ من جريدة الرياض يوم الخميس ٩ ربيع الآخر ١٤٢٠هـ، تناول فيه نقد عدد من القصائد التي قرأها في بعض الصحف، وأنحى باللائمة على المشرفين على الملاحق الأدبية، وأشار إلى أنهم يعبثون بإبراز بعض القصائد، وهي لا تستحق الإبراز، ولا يلقون اهتماماً بما يستحق الاهتمام، ويضرب مثلاً بقصيدة الشاعر جاسم محمد عساكر التي أشرت إليها آنفاً، فيقول: إن قصيدة: «أسرجت قلبي في هواه» لم تأخذ حظها من اهتمام المشرفين على ملحق الجريدة، لأن صاحب القصيدة جاسم محمد عساكر غير معروف عندهم، وغير معروف عندي، ولم أقرأ له من قبل، وقصيدة هذا الشاعر المبدع، جاءت من بحر السريع وهو بحر من أقدم بحور الشعر على قلة ما جاء منه في الشعر العربي القديم، وندرة ما جاء منه في الشعر الحديث المعاصر لخوف الشعراء المعاصرين من الخوض في تجربة النظم في بحر لا

يحسنون السباحة فيه وهو بحر ذو أمواج متلاطمة ومياه صاخبة، وأذن الشاعر بطبيعتها تميل إلى ما ألفت سماعه من الشعر ذي الموسيقى الهادئة والنغمات الجميلة الرنانة التي يخلو منها بحر السريع، يقول الشاعر جاسم محمد عساكر لا فض فوه:

وجهت وجهي نحوه فاتجه
فما أحيلاه وما أدعجه

أسرجت قلبي في هواه فهل
تراه مثلي في الهوى أسرجه

قد داعب الحسن له طلعة
كالشمس في أنوارها المبهجه

وجه تجلى الصبح في خده
ما كان أسناه وما أبهجه

ويصف العباد قافية تلك القصيدة بأنها من القوافي الصعبة التي يقل ورودها في الشعر العربي، وإن كلماتها تنساب في روعة وافتتان انسياب النهر بين الأزهار الفواحة، والأشجار اليانعة.

وتجدر الإشارة إلى أن القصيدة أخذت شيئاً من الاهتمام بها فقد نشرتها برسم تصوري ولون مميز مجلة «اليمامة»، في عددها ١٥٦٥، السبت ١١ ربيع الآخر ١٤٢٠هـ بتوقيع صاحبها جاسم محمد عساكر من الجفر بالأحساء، من تلك القصيدة قوله:

لما رآني مقبلاً علني
أهديه من قلبي الذي أولجه

قد رام أن ينسل من خافقي
ضيقاً ولكن الهوى سيجه



ما ضاق مني القلب في حبه
إلّا وألفيت الهوى فرجه

أخرجت قلبي كي يرى نفسه
فيه وأدنى الحب أن أخرجه

والقصيدة تبلغ نحواً من تسعة عشر بيتاً كلها محكمة الصنع.

○ ○ ○ ○ ○

ليس من حيف، إن قلنا شاعر العصر

خالد الفيصل، دايم السيف!

في عالم الشعر وجماهيره، لا يختلف اثنان في أن صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل «دايم السيف» هو شاعر الشعر الشعبي بلا منازع، ولو كان للشعر الشعبي إمارة أضيفت إلى إمارة الأمير خالد، وانحسم الأمر، وانتفى الشك من قوله:

بيني وبين الشعر الصداقة والخصام

يوم هو عندي أمير ويوم أنا عنده أمير

احكموا يا أهل الفكر يا رفيعين المقام

من هو اليوم الأمير ومن هو اليوم الوزير

والحق أنني لو كنت من المحكمين في هذه القضية لقلت: هو أمير الشعر في كل يوم.

والذي يقرأ قصائد الأمير خالد يجد فيها أسلوب العصر مع أنغام مفرداته مسبوكةً في قالب شعري أصيل تتناغم فيه القوافي تناغم الأطيار على غصون الأشجار.

ولا أريد أن أزيد على ذلك فأنا سعودي، وربما قيل: إنني خائف أو متجانف في الحكم، ولكن الأمسية التي أقامها سموه في قصر الثقافة بعمان بالأردن في ١٢ رجب ١٤٢٠هـ وحضرها أكثر من سبعة آلاف متفرج كان الإبداع فيها فوق ما يتصوره المعبرون عن المبدع في إبداعه.



وكيف أكلف نفسي بالبحث عن العبارات التي تزيد من القناعة بأن الأمير خالد الفيصل هو شاعر العصر، والأستاذ حبيب الزيودي مدير بيت الشعر الأردني والمستشار الثقافي قد قال بالحرف الواحد: «شعر خالد الفيصل بالتحديد امتداد طبيعي للثقافة العربية التي تشكلت في الجزيرة العربية منذ العصر الجاهلي إلى الآن».

ومع هذه الشهادة بأصالة شعر سمو الأمير خالد الفيصل أهداه قصيدة فصحية، منها قوله:

يمشي لك الشعر بالأوزان رقراقا
ينساب ثراً على عمانٍ دفاقا

وأنت أجمل من غنّى فأيقظ في
ضميرنا الشعر أنغاماً وأشواقا

يا طالعاً في ليالي تيهنا قمراً
أضحت قوافيك للأشعار ميثاقا

إن ضاقت الأرض عن أحلامنا سعة
فشعره مشرع الأبواب ما ضاقا

إن القصائد قفراء فإن طرقت
عبد العزيز اكتست زهراً وأوراقا

وما تحدث عن آل السعود فمي
أنبت عنه صدوق الود خفاقا

ومنها قوله:

يمشي لك الشعر بالأوزان صافية
ينساب عذباً على عمان رقراقا

وأنت أجمل من غنى مضاربها

وسطر الشعر أنغاماً وأشواقا

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ ١٤ بيتاً وقد قرأتها في العدد ١٢١١٦ من جريدة «عكاظ» الصادر بتاريخ ٢٠ رجب ١٤٢٠هـ.

○○○○○

وقفة على موضوع في صحيفة

والصحيفة هي جريدة «الجزيرة» العدد ٩٧٩٦ يوم الأحد ١٣ ربيع الآخر ١٤٢٠هـ.

أما الموضوع فهو موضوع يطرقه الكتاب والشعراء بين حين وآخر ويجد فيه كل متلقى لما يكتبونه صدق التعبير الذي يرسم حقيقة ملموسة لقضية من أهم قضايا الشباب والشابات، ألا وهي العنوسة، وأسباب ظاهرتها في مجتمعنا.

ولا أريد أن أنقل ما تضمنه ذلك الموضوع الذي سطره الكاتب سليمان عبد الرحمٰن الفراج فمشكلة العنوسة في بلادنا أمر لا يحتاج إلى كتابة، وتنميق مقالات، أو إلقاء محاضرات وإنما يتطلب حلاً عملياً ملموساً، يجعل أولياء أمور العانسات أمام مواقف محرجة وأسئلة لا يستطيعون الإجابة عليها لعدم امتلاكهم أي مبرر فيه ما يقنع على الإصرار بعدم تزويج بناتهم اللائي يمنعهن الحياء من التصريح بما يخالج نفوسهن من حجج تخالف بواقعها الأدبي والاجتماعي والإنساني والخلقي، مواقف أوليائهن.

والحقيقة أن مشكلة عنوسة الشاب والشابة معاً تتضاعف كماً من سنة إلى أخرى وليست تتضاءل حسبما نريده ونطمع فيه.

وإذا ما درسنا أسباب عزوف الشباب عن الزواج وجدنا النسبة الكبيرة من ذلك قائمة على مغالاة أولياء أمور البنات في طلب المهور وما يتبعها من تكاليف ما أنزل الله بها من سلطان.

ونقل سليمان الفراج في موضوعه ذاك أبياتاً للشاعر السعودي



المعاصر سعود بن محمد بن سعود السليم عرض فيها مشكلة العنوسة على لسان واحدة من الموؤدات بين حيطان أربعة بسبب طمع والدها.

من تلك الأبيات قوله:

أبتاه ما ذنبي وما الإجرام
وبأي ذنب تقطع الأرحام

أبتاه إن الشيب قارف مفرقي
وتتابعت من عمري الأعوام

لكن لي أملاً إلى مستقبل
من قبل أن تتصرم الأيام

أرنو إلى زوج يواسي روعتي
ويكون لي في النائبات حسام

أرنو إلى طفل أقبل ثغره
وإذا اشتكى بين الضلوع ينام

إن الشباب إذا تولى غدوة
عند الرواح تبدد الأحلام

ويكون حقاً ما خشيت ويثني
عود الشباب وتكثر الأوهام

ومالي أرى للجاهلية صولة
ولها بأيدي الوائدين زمام

والأبيات أكثر من ذلك فهي تبلغ نحواً من ١١ بيتاً.

○ ○ ○ ○ ○

قلب الصفات المعيبة إلى صفات حميدة!!!

ومن البديع ما تقلب به الصفات المشينة إلى صفات مزينة، والعكس كذلك، وهذا فن أكثر ما يبرز فيه. ويتفنن في تصريفه وإتقانه الشعراء المتمكنون من فلسفة الحقائق، ومداخلة أساليب التهكم بأساليب الجد.

فتراهم بعبقرية شاعريتهم يحولون بأساليبهم الشعرية الصفات المعيبة إلى صفات محمودة.

ونقرأ تصريفهم لقلب الحقائق المشينة إلى واقع مزين، فلا نباشر الاعتراض عليهم لأنهم يحققون ذلك بتشبيهات لا تبتعد بنا من حيث المنطق الفلسفي عما يقربنا إلى القناعة بآرائهم.

ولعل في استعراضنا لقول الوجيه الذروي في ابن أبي حصينة ما يدعم وجهات نظرهم ويحقق جانباً من فلسفتهم، كيف لا، وقد جعل من حدبة الظهر المشينة شبهاً للهلال الذي يبدو حسنه في تقوسه:

لا تظنن حدبة الظهر عيباً
فهي في الحسن من صفات الهلال

ويؤكد بأن القسي المحدبة أنكى وأمضى في فعلها من الظبا والعوالي التي هي غاية في الاعتدال والاستقامة:

وكذاك القسي محدودبات
وهي أنكى من الظبا والعوالي

ويشير إلى علو مكان السنام من ظهر الجمل رغم تقوسه:



وإذا مـا عـلا الـسـتـام فـفـيـه
لـقـروم الـقـوم الـجـمـال أيُّ جـمـال

ويمضي في بقية الأبيات على هذا المنوال من عكس الأشياء المشينة إلى أشياء مزينة.

وأرى الانـحـنـاء فـي مـخـلـب الـبا
زي ولـم يَـعْـدُ مـخـلـب الـرئـبـال

كـوّن الـلّـه حـدبـة فـيـك إن شـئـ
ـت مـن الـفـضـل أو مـن الإفـضـال

فـأتـت ربـوةً عـلـى طـود عـلـم
وأتـت مـوجـةً بـبـحـر نـوال

مـا رأتـهـا الـنـسـاء إلّا تـمـنـت
أنـهـا حـلـيـةٌ لـكـل الـرجـال

ثم يختمها بقوله:

وإذا لـم يـكـن مـن الـهـجـر بـدٌ
فـعـسـى أن تـزورنـا فـي الـخـيـالي[1]

○○○○○

---

(١) «نهاية الأرب» ١٧٩/٧، ١٨٠.

ذكريات من الماضي لبدرية الحربي!!

والشاعرة السعودية المعاصرة بدرية الحربي، تقول:

يعاندني القصيد فلا أبالي
وأجثو فوق هامات الأمالي

وهذا البيت هو مطلع قصيدة لها قوامها ثلاثة عشر بيتاً، وهو مطلع يتسم بالعنف ومعاندة القريحة الشعرية، بل يتصف بالإصرار على أن تقول شعراً يترجم الآمال التي تتطلع إليها، لكنه يحول بينها وبين الترجمة الملموسة بعض الآهات التي تنتابها وتحوّل أنسها القائم على اللقاءات إلى أطلال مودة تقادم عهدها وتفلتت أواصرها:

شرقت اليوم بالآهات حتى
فنى أنسي على طلل الوصال

ويوجد البعد في نفسها عاملاً يحبط ما كانت تعيشه من أنس ويتغشاها بسببه السهاد، أما قلبه فيتلقى بسبب البعد سؤالاً كالجمر حرارة.

يسوم البعد أحداقي سهاداً
ويلعق خافقي جمر السؤال

وتعود بها ذكريات ملاعب الطفولة بحس مرهف يسمع به مناجاة النجم للهلال، ويرسم أمامها بذكاء كل ما كان شاهداً من المعالم الثابتة إبان الطفولة كالبيت القديم الذي كان يضمها مع رفيقات صباها، وكالدرب العتيق الذي لم يطرقه بعدهن حاف أو منتعل:



تطوف الذكريات على فؤادي
ويروى النجم سراً للهلال

عن البيت القديم وعن صبايا
زرعن الحلم في لغة التلال

عن الدرب العتيق وعن خطانا
يذيب سكونه قرع النعال

عن المطر المصيب إذا انتشينا
يبللنا ونمرح لا نبالي

عن الليل المهيب إذا كسانا
بزين ردائه حبر مثالي

والحقيقة أن الشاعرة بدرية أجادت رسم ذكريات صباها وملاعب طفولتها بريشتها الشعرية الجميلة، ولوّنتها بألوان صادقة استمدتها من ماضي صباها، واستوحت منها قصيدة بلغت نحواً من ثلاثة عشر بيتاً اخترت منها ما تقدم، وقد قرأتها في العدد ١١٣٥٨ من جريدة «الرياض» الصادر يوم الجمعة ١٧ ربيع الآخر ١٤٢٠هـ.

○ ○ ○ ○ ○

لو كنت الشاعر لأضفت بعد البيت الخامس بيتاً

حبر الكاتب السعودي: علي الشدي موضوعاً عنوانه: «خلقت مديراً والإدارة في دمي» وقفه على الإدارة ومديرها، وتساءل عن صحة أقوال خبراء الإدارة الذين قالوا: الإدارة عبارة عن أمراض نفسية ترجمت إلى إجراءات.

ورأى الشدي أن المركزية في الإدارة هو الداء الإداري الأول وسرطانها[1].

قلت: والحقيقة إن موظفاً يعمل تحت مديراً مركزياً لا يمكن أن يبدع في عمله أو يأتي بجديد وإنما هو عبارة عن ممثل خاضع لتعليمات المخرج ومصغ لصوت الملقن ليس إلّا، لأن مركزية إدارته التي يعمل فيها وأدت في نفسه كل تفكير في تطوير عمله، والبحث عن سبل تجعله مرناً مع المراجع من ناحية، ومُسَيّراً لأوراق المعاملات ببساطة متقنة من ناحية أخرى.

والسؤال الذي يفرض نفسه في محيط هذا المفهوم المركزي للوظيفة يأتي على هذا النحو، لماذا لا يَجدُّ التفكير في تنحية المركزي عن إدارته؟ لتتحرر الإدارة من قيوده، وبالتالي يتبارى موظفوها في الإبداع في العمل لتصبح متجددة في نشاطها، ومتنوعة في بساطة أساليب منح الثقة التي تتلاقح فيها آراء الموظفين في جو تعبق فيه الإدارة بفكر صغير موظفيها وكبيرهم معاً.

---

(١) مجلة اليمامة العدد ١٥٥٦ السبت ٧ صفر ١٤٢٠هـ.



ولو سألنا عن نشأة المركزية، هل هي من طبيعة بعض النفوس؟ أم هي من العوامل المكتسبة بالمخالطة والممارسة؟ لطال بنا البحث عن الإجابة الصحيحة: إذ أن لكل منها نصيب في تكوين المركزية عند بعضهم.

وأخصرها، أن بعضهم كان منذ طفولته وهو يعايش المركزية من أبويه اللذين لم يمنحانه الثقة بنفسه في التعامل مع زملائه، فتراه يتلقى توجيهاً ليست بذات صلة بتأديبه وبناء شخصيته، وإنما هي جملة توجيهات تحاصره فلا تدع له رأياً مستقلاً على الإطلاق، أما البعض الآخر فيكون مكتسباً اكتساباً تقليداً يتدرج نموه في نفسه بحسب تدرجه الوظيفي تحت رؤساء مركزيين.

أما الكاتب الشدي فقد ختم موضوعه بأبيات على لسان مدير مركزي متشدد في مركزيته ومتفاخراً بها، والأبيات هي:

خُلقتُ مديراً والإدارة في فمي
أمثلها بالقلب والروح والفم

وسر نجاحي في الإدارة أنني
أسير على نهج صريح ومبهم

أحكم في كل الأمور وأرتضي
مزاجي وما أحلاه من متحكم

أنا مركزي لا أطيق تصرفاً
لغيري ولم يُعرض علي ويُعلم

ومن كان آلياً فذاك مقدم
لديّ وذو الإبداع غير مقدم

وكل اقتراح لم أكن مصدراً له
يؤول إلى ركن من الدرج مظلم



ومن يك بصاماً يناسب شرعتي

ومن يرم الترفيع في الحال يبصم

قُلتُ: لو كنت شاعر هذه الأبيات لجعلت البيت السادس منها بهذا النص:

ومن يجعل الأعمال وقفاً لرأيه

فذاك الذي مثلي وبالطبع ينتمي

○ ○ ○ ○ ○

ما هي بازية الدهر؟

كثيراً ما تشتهر بعض القصائد باسم من قيلت فيه، وتتلقب بلقبه، وكأنها من بعض ممتلكاته التي لا تعرف إلّا باسمه، وعلى هذا نجد أن القصيدة إما أن تنال ممن قيلت فيه شرفاً إذا كان فوق ما ذكر عنه فيها، أو ينال بها شرفاً إذا كان ما فيها مبالغ فيه بما هو فوق واقعه وما هو عليه من حال.

أما من حيث اشتهار القصيدة بغير ما ذكرته فله أسباب وعوامل ليست ذات نمط واحد، فالقصيدة (الدعدية) مثلاً اشتهرت بجودة أسلوبها، ولم يعرف قائلها وإنما عرفت باسم «دعد» التي كانت مدار تغزل قائلها.

ولامية العرب، ولامية العجم، اشتهرتا بجودة صناعتهما ونسبتهما إلى قائليهما واهتمام النقاد والدارسين بهما.

ومن القصائد ما اشتهر في عالم الأدب العربي بعذوبة قافيتها وجرس موسيقاها وإحكام صنعتها، كتائية ابن الخطيب، وبائية ذي الرمة، ونونية ابن زيدون، ومقصورة ابن دريد.

وغير ذلك كقصيدة نهج البردة، وليل الصب للحصري، بل إن من القصائد ما يشتهر بعدد أبياتها كالألفيات، وهي التي يبلغ بها ناظمها ألف بيت، وغير ذلك مما كان له شهرة في عالم الأدب العربي.

ولا أريد أن أتتبع ما لقب من القصائد بلقب من قيلت فيه بقدر ما أريد الوصول إلى قصيدة حديثة عرفت حديثاً في الأدب السعودي بـ«بازية الدهر» بل ربما تجاوزت شهرتها حدود الأدب السعودي إلى الأدب الإسلامي في كثير من بلاد المسلمين، و«بازية الدهر» تعد من المطولات الحديثة وقد نظمها الشاعر السعودي ناصر بن مسفر الزهراني



في سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز مفتي المملكة العربية السعودية رحمه الله وقد طبعت في كتيب قدم له عدد من المشايخ.

ولعله من المناسب أن أختم هذا الموضوع باقتطاف بعض من أبياتها، وذلك مثل قول الزهراني وهو مطلعها:

يا مرحباً بإمام قدره عالي
وصوته عندنا مستعذب غالي

ومنها قوله:

يا لائمي لا تلمني لم سماحته
سبا فؤادي واستولى على بالي

دعني آتيه على الدنيا برائعة
بازية الوجه.. زهرانية الشال

ومنها قوله واصفاً ما هي عليه الأمة من حال:

يا أمة يعرف التاريخ سطوتها
وبأسها ما لها لاذت بأذيال

كانت إذا غضبت يوماً على أحد
تزلزل الأرض منها أي زلزال

واليوم يا سائلاً عنها فقد منيت
بوابل من حجم الذل منهال

تفرق واختلافات ومسغبة
أما الجهاد فيلقى شرّ إهمال

يذلها بعد ذاك العز شرذمة
في الأرض من نسل أوغاد وأنذال

والقصيدة تبلغ ٨٣ بيتاً تنقل فيها الزهراني نقلات إبداعية جيدة، بأسلوب أدبي عليه مسحة الوقار.

دمعة حزن على وفاة ابن باز شيخ الأمة الإسلامية

وابن باز هو: سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز مفتي عام المملكة العربية السعودية ولد بمدينة الرياض في اليوم الثاني عشر من شهر ذي الحجة عام ١٣٣٠هـ وفي مدينة الرياض نشأ وتلقى العلم على أيد عدد من المشايخ أهمهم سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وتوفي في يوم الخميس السابع والعشرين من شهر محرم عام ١٤٢٠هـ، وقد ضج العالم الإسلامي وحزن حزناً شديداً على وفاته، فضلاً عن الشعب السعودي الذي ذرف الدموع على فقده وتألم لموته.

وقد استمرت الصحف والمجلات المحلية وغير المحلية في العالم العربي أياماً طوالاً وهي تواصل تغطية نبأ وفاته، وذكر مآثره ومحاسنه، ومناقبه، وبعض جوانب حياته العلمية والفكرية.

وقد أحصيت قرابة ١٧٠ شاعراً كلهم رثوا سماحته بقصائد تفجرت ألماً وأسى على موته، أما الكتابات النثرية التي تشيد بمآثره وجوانب حياته، وتصف غزارة علمه وحلمه وأدبه وحكمته وورعه ولطافته، ورفقه بالناس، وبذله وسخائه وعطفه على الفقراء والمحتاجين في داخل المملكة وخارجها، فشيء لا يحصر ولا يحصى.

ولقد طالت حيرتي حينما أردت اختيار أبيات أحلي بها هذا الموضوع. فما قرأت قصيدة إلّا لوجدت شاعرها أشد ترجمة لتفجعه من الشاعر الآخر، لذا عمدت إلى البحث عن قصيدة ذات تميز في هيكلها فوجدت ذلك في قصيدة للشاعر الشيخ عبد اللطيف بن عمران آل الشيخ الذي أكثر من مخاطبة سماحة الشيخ كالعادة الجارية في أساليب الرثاء



حيث خاطبه في جميع أبياتها بـ«كنتَ» عدا مطلعها وخاتمتها، منها قوله وهو يخاطب سماحته بذكر مآثره وصفاته:

كنت نجماً وكنت بدراً وشمساً
كنت أفقاً وقمة في الشمائل

كنت إذ كنت في الحياة إماماً
زاهداً عابداً عظيم الجمائل

كنت بازاً وكنت صقراً ونسراً
كنت مفتٍ تحل صعب المسائل

كنت قاضٍ وكنت أستاذ علم
كنت لقمان إذ تحل النوازل

كنت إذ كنت في الحياة أويساً
وسعيداً وشيخ كل القبائل

كنت خيراً وكنت براً رحيماً
كنت في القول أصدق الناس قائل

وقوله: «كنت لقمان» يعني لقمان الذي ورد ذكره في القرآن وقد آتاه الله الحكمة أما أويس: فهو صحابي قيل: إنه عاش في اليمن يرعى غنمه وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تمنّى رؤيته، أما سعيد، فلعله يعني سعيداً بن جبير التابعي الذي قتله الحجاج بن يوسف أمير العراق ظلماً وعدواناً، ومن القصيدة قوله:

كنت قساً إذا خطبت بليغاً
يَعْرفُ الحق عنكم كل جاهل

كنت تصغي إذا أتاك سؤال
وتجيب بما ترى كل سائل

وقوله: «كنت قساً»، يعني بذلك قس بن ساعدة الإيادي الخطيب المشهور.



الإرهاب، أين مصدره؟ ومن الذي يندد به؟!!

ليس بخاف على كل من يتابع نشاطات من يعادون الإسلام وأهله، أن اليهود كانوا وما زالوا في رأس القائمة التي تضم معاداة الإسلام، والبحث عن الوسائل المشوهة له بأي أسلوب، ومن أي طريق.

واليهود طرقوا أبواباً كثيرة على مدى العصور للتحريض على المسلمين، والوقوف ضد اتجاهاتهم، ولم ينجحوا بحمد الله، ولن ينجحوا إن شاء الله.

وآخر ما طرقوه من الأبواب، وصف من ينافحون عن الإسلام ومبادئه بالإسلاميين المتطرفين، بل إنهم اتخذوا من الإرهاب منطلقاً لوصف المسلمين به، فحينما يحدث عمل إرهابي في العالم، فإن اليهود بجميع وسائلهم الإعلامية العالمية يحصرونه في المسلمين، وإذا تأخر حدوث ما يوصف بالعمل الإرهابي، عملوا جهدهم وبأيديهم على إحداثه لينسبوه إلى المسلمين.

ولا أدري ما هي صفات الإرهاب؟ هل لها وصف في اللغة العبرانية لا يتفق وما يُترجم بجميع لغات العالم بحيث تستخدمه اليهود في فلسطين صباحاً ومساءً على أنه أسلوب اجتماعي مرغوب ليه، وأن هدم منازل الفلسطينيين وقتل رجالهم ونسائهم وأطفالهم وانتهاك أعراضهم لا يوصف بالإرهاب في لغات العالم؟!!

حقيقة إنها أشياء تثور لها النفس ولا تهدأ، وتغضب لها جميع العقائد والأديان ولا ترضى، إلّا أن مجلس الأمن بتضليل اليهود لم يعد



يفهم معنى التطرف والإرهاب، أو أنه يفهم ذلك ولا ينكره على مدبره الحقيقي، وتلك حقيقة لا يلقىٰ لها مجلس الأمن أذناً بقدر ما يفهمه من صحافة أمريكا وأوروبا التي تحركها أيدي يهودية سوى بالعمل المباشر أو بالتمويل المادي من تجار اليهود في العالم.

وتبقى الإشارة واضحة بأن أي عمل إرهابي لا بد أن يكون مصدره اليهود الذين لا يأبهون حينما يريدون تنفيذ عمل إرهابي ضد المسلمين بأن يروح ضحيته عدد من أصدقائهم حتى إذا تم تنفيذه بنجاح رموا به جهة أخرى ليحدثوا بها عداوة المسلمين وأصدقائهم من أرباب الديانات الأخرى كالنصارى مثلاً وغيرهم، ولمن يجهل صفة الإرهاب، أخذ الكتاب والشعراء المسلمون في طرحها كموضوع يمارسه القوي بحق الضعيف ثم يفسره بما يتفق وتطبيقه على المسكين الذي يرمى بالاتهام بأنه إرهابي، ولعل أحدث ما قرأته من شعر فيه وصف لشكوى ذلك المسكين يحيى عباس والتي ترجمها الشاعر إبراهيم بن فهد المشيقح في قصيدة مثيرة منها قوله:

حكموا عليّ بأنني إرهابي
قالوا بأني قد فقدت صوابي

زعموا بأني مسلم متطرف
والويل كل الويل للإرهاب

قد جيّشوا إعلامهم ليبثها
في أذن هذا العالم المرتاب

قالوا بأني لا أجيد تحاوراً
غير السلاح بجيئتي وذهابي

فتظافرت كل الجهود وأصدروا
حكماً عليّ.. وحكمهم بغيابي

حكموا بقتلي.. حيث أني مسلم

أبغي الكرامة.. أو يهال ترابي

إن كان رد القدس صار تطرفاً

فأنا أبيح تطرفي لصحابي

فالقدس سوف تعود رغم أنوفهم

هذي السيوف نسلها لرقاب

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ ١٨ بيتاً وقد نشرتها مجلة «المجتمع» في عددها ١٣٧٠ الصادر في ٢٥ جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ.

○ ○ ○ ○ ○

الصالح يهنأ القاضي شعراً

كثير من الناس يفرض بأخلاقه وحسن أدبه وسلوكه، وعقلانيته في ثبوت سياسته بعلاقته بالآخرين، وحب الناس له، والأديب حينما يكون ذا فكر يربط حياته الخاصة بالحياة العامة وعلم يخالط به العلماء والمفكرين، وأدب يتقرب به مجالس الأدباء، ويُعَيِّنُ له مكاناً في صدارتها، فإنه سيظل في ذاكرة المجتمع الذي يعيش بين ظهرانيه.

ثم إنه ليس بالمستغرب أن تحمل سلوكياتُهُ ألسن الناس على الإشادة به في المناسبات التي يكون للإشادة به فيها اعتبار يحقق له تميزاً بين أنداده.

والأديب حمد بن عبد الله القاضي رئيس تحرير «المجلة العربية» أحسبه من ذلك الصنف المتميز بخصاله الأدبية المصطبغة بصبغة التواضع ولطافة الحديث، والابتعاد عن معاني الكبرياء ومفاهيم الغطرسة التي يعشق امتطاءها بعض الأدباء ظناً منهم أنهم يتجهون بها نحو التميز عن الآخرين وهم ما علموا أنهم يسيرون في عكس ما تحدثهم أنفسهم به.

وذكر المحامد والمناقب ونشر الفضائل كثيراً ما يأتي في صور الشهادات البعيدة عن زيف الإطراء، ومثل هذا ما سجله المربي الكبير الأديب الشيخ عثمان الصالح في قصيدة وجهها إلى الأديب حمد عبد الله القاضي بمناسبة ترقيه في الوظيفة، ومناسبة نيابته عن علامة الجزيرة حمد الجاسر باستلام جائزة العويس الثقافية بدولة الإمارات العربية، منها قوله:

إلى القاضي أبي بدر أخينا
ومن أضحى بفكرته أمينا



ومن هو في الصحافة بدر تم
بكل (صحيفة) كتب الثمينا
في رصف المجلة نال قدراً
وصل بنسقها الزاهي مكينا
فأضحت روضة فيها مجال
لكتّاب بها متمسكينا
أرى فيها (الخويطر) والقصيبي
وجاسرنا الذي ربى بنينا[1]

ومنها قوله مشيراً إلى أعمال العلامة حمد الجاسر ومؤلفات في الأنساب والرحلات:

وفي الأنساب والرحلات تاقت
لها كل القبائل أجمعينا
وإذ أُرْسِلت مندوباً أميناً
لجاسرنا العظيم به عنينا
إلى «ابن عويس» تستلم الهدايا
ولم يكن العويس بها ضنينا

والحقيقة أن أديبنا حمد القاضي كان أهلاً لذلك، والقصيدة طويلة فهي تبلغ ٢٦ بيتاً وقد قرأتها في العدد ١٠٨١٨ من جريدة «عكاظ» يوم الثلاثاء ١٤١٦/١١/٧هـ وفيها شيء من المداعبة حيث طالب الشيخ عثمان الصالح، حمد القاضي بإقامة وليمة كبيرة بمناسبة الترقية.

وما حمد القاضي إلّا من الكرماء فلا أخاله إلّا قد ترجم تلك المداعبة إلى واقع سعد به زملاؤه وأصدقاؤه.

---

(١) الخويطر هو معالي الدكتور عبد العزيز عبد الله الخويطر، القصيبي: هو معالي الدكتور غازي عبد الرحمٰن القصيبي.

مسافر.. يعارض بوصف القهوة ـ يا ليل الصب..

من المعلوم أن الحابل اختلط بالنابل في عالم الشعر في عصرنا هذا، وأنه قد تشاعر من لا يقيم للشعر وزناً. فأصبح السامع المتذوق مذهولاً. قد لجّ بأذنه خليط من الصالح والطالح.

ولهذا فإن الكم قد طغى على الكيف في الشعر. وفي أسماء الشعراء أيضاً. فلا نحصي من يقول أو بالأصح من يسمي نفسه شاعراً، وإنما نحصي من يشهد له الشعر بأنه شاعر. وقد لا نحتاج إلى زيادة أصبع على أصابع اليد في عَدٍّ من يجيد النص الشعري الذي يترجم المشاعر بأسلوب أصيل مستمد من عبق القصيدة العمودية المقفاة التي نسجها وأحكم نسجها أوائلنا.

ومن الشعراء القلائل الذين يظهر عشقهم للشعر الأصيل ويكون له أثر من أعمالهم الشعرية: شاعرنا المعاصر أحمد صالح الصالح (مسافر) كيف لا؟ وها هو ذا يتعشق قصيدة «يا ليل الصب متى غده» للشاعر القيرواني أبي الحسن علي بن عبد الغني الحصري المتوفى بطنجة سنة ٤٨٨هـ. ويعارضها بقصيدة هي من القصائد الجميلة التي عارض بها أصحابها «يا ليل الصب».

وقد زودني بها مشكوراً حيث علم باهتمامي بجمع معارضات: «يا ليل الصب» وقد نحا فيها منحى جميلاً حيث وقفها على وصف القهوة العربية والتركية وأوانيها. وكيفية تحضيرها أقتطف منها ما هو موافق لشرطي في «الأدب المثمن» وهو الاستشهاد بثمانية أبيات فقط لكل موضوع:

يقول: «مسافر» في قصيدته تلك:

يا ليلُ.. الجفْنُ يُسهّدهُ
سمراء الحسن وسَيِّدُهُ

تحكي الفيروز وروعَتَه
ما في الألوان مُورَّدُهُ

ومنها يقول:

«بَرّيٌ» ليس «هراريّاً»
عنوان البن ورائده

لا ينكر لذتها.. إلّا
معتل الذوق وفاقده

طعم كالمسك ورائحة
كالعنبر عزّ مُفَنِّدُه

ليل السمار بها يحلو
وعَصِيُّ الهم تُبدده

ومنها يقول:

صفراءُ مذهبةٌ تُغْرى
من ثغر الدلة مورده

يتوهج مِرْشَفُها.. نوراً
شلال الضوء وعسجده

والقصيدة طويلة فهي تبلغ ٤٤ بيتاً. يشنف الآذان إحكام صنعها. وجرس موسيقاها. وبديع تماسكها.

○○○○○

هل الزواج من الاثنتين سعادة أم شقاء؟

تتضارب الآراء حول الشخص المتزوج زوجتين، ويرتكز التضارب في الإجابة على السؤال عن كل متزوج اثنتين، هل هو سعيد بزواجه منهما أم لا؟. أو هل هن يعشن في وئام تام معه. أم في تنازع وشقاق؟.

وقد نجرؤ على القول بأن زوج الاثنتين ربما يكون عمر سعادته قصيراً ومحدوداً، أو هو الواقع. لأن هناك غيرة تقع في نفسي زوجتيه. ووساوس تولد مساءلته حيناً. وحيناً يتأكد لهن بدقة ملاحظتهن جنوحه إلى تفضيل إحداهن على الأخرى، ذلك التفضيل الذي هو أشبه ما يكون بالشرارة التي تؤجج نار المشكلات. أو بالريح السموم التي تهب على بساط الوئام والانسجام فيحد بل يقصر من عمر السعادة التي كان الزوج يظن أن سِرَّ وجودها يكمن في الزواج باثنتين.

وإذا كان من الصعب إقامة العدل بينهما لعوامل نفسية يحركها فارق الجمال الذي قد تتمتع به إحداهن على ضرتها تمتعاً يكفل لها رجوح كفتها في عين زوجها فإن الأمر يقتضي بسلبية حياة الزوجتين. بل يميت السعادة. ويحي الشقاء ويحصد الصفاء ويزرع النكد والبغضاء. ويجعل البيت عسكرين متناحرين لا يستطيع ربه فك الاشتباك الذي ولّدته العوامل المضادة للسعادة التي كان ينشدها. ويأمل التمتع بها.

ومن الشعراء الذين كان لهم رأي في ذلك. الشاعر إسماعيل سري الدهشان المولود عام ١٨٨٢م والمتوفى عام ١٩٥٠م وقد ضمن رأيه في قصيدة ضمها ديوانه «بين الجد والجيد» منها قوله:



أيها الناعم بالثروة يقْني ضرتين

لست تلقى فيهما الزوجة لكن عبدتين

هن زوجات وفي قصرك لكن لِلّجين

أنت إن حدّثت إحداهن مَرْمي بمين

لا يرى البيت سلاماً طالما يحوي اثنتين

وإذا خلقن كنت الضِدّ بين الفرقتين

وإذا متّ فقد أعقبت نسلاً عسكرين

ليس في الكون غبيّ مثل زوج المرأتين

هذا هو رأي الدهشان وقد لا يوافقه من أسعفته الصدفة بالسعادة بهن.

○ ○ ○ ○ ○

منتدى الغربللي. انطلاقة فكر وتجلي

ومع انطلاقة فكر المرأة في عالمنا المعاصر. نلمس من نسائنا الخليجيات وثبات قوية وشجاعة تتوالى نحو مستقبل ثقافيّ وعلميّ وأدبيّ. يمحو بانطلاقته تلك. ما كان قائماً من فروق بين أدب المرأة وأدب الرجل. من حيث الكم والكيف.

والذي يتابع نشاطات قلم المرأة الخليجية من خلال الصحف والمجلات والإصدارات. يدرك أن الأفق العلميّ والثّقافي للمرأة قد أشرق وأخذ النظر فيه أبعاداً لم يرها أسلافنا من قبل. حيث تهيأت للظروف التعليمية. مثل ما الظروف التعليمية تهيأت لها. فكان ثمرة هذا التوافق وحصيلته. توفر الطبيبات والمعلمات والكاتبات والشاعرات. والأخصائيات والممرضات. وغير ذلك.. والسيدة إقبال عبد اللطيف الغربللي التي التقيتها خلال وجودي في الكويت للمشاركة في «ملتقى ابن لعبون للثقافة والآداب والفنون». الذي أقامته مؤسسة جائزة البابطين للإبداع الشعري في الفترة ما بين ٢٧ ـ ٣٠ أكتوبر عام ١٩٩٧م مع عدد من السيدات الأديبات اللائي أكدن تفاعلهنّ الأدبيّ والثقافيّ. وأظهرن مشاركةً فعالةً في حياتنا الفكرية والعلميّة والأدبيَّة.

ولقد أهدتني السيدة الكريمة إقبال الغربللي عدداً من إصدارات «منتدى أصحاب القلم» وقد قرأتها قراءة تأكد لي منها أن لإقبال جاذبية أدبيّة وثقافيّة أهلتها لإقامة ذلك المنتدى «منتدى أصحاب القلم» وأنها تستحق من يشيد بها ويبارك جهودها المادية في إنشاء منتداها. الذي ذكرني بالصالونات الأدبيّة النّسائيّة في مصر ولبنان كصالون مي زيادة مثلاً.

والحقيقة أن القلم يداخله نشوة اعتزاز عندما يأخذ في تسجيل إبراز دور المرأة الخليجية في المساهمة في حياتنا الأدبية والاجتماعية، وإذا كان للشعر نغمة خاصة بالتنويه ومباركة ذلك فإن الشاعر الكويتي ماجد سيف قد أدلى بدلوه. فنظم قصيدة امتدح بها إقبال الغربللي على ما قامت به من حركة أدبية وفكرية في دولة من دول خليجنا ـ وهي الكويت ـ من تلك القصيدة قوله:

شهدتْ بفضلك للعلا أفعال
فغدتْ تطول بمدحك الأقوال

هذا صنيعك لن يموتَ إذا مضتْ
هذي الحياة وبُدِّلتْ أجيال

فعلى يديك تحققتْ أمنية
وعلى يديك تغيّرتْ أحوال

تشريه بالمال العزيز مفاخراً
ولمثل فعلك تجمع الأموال

ولقد سعدنا بافتتاحك واحة
للفكر فيها للأديب مآل

تتبسمين لمن يزورك مثلما
ضحكتْ لمحزون الجوى آمال

كُتب القبول لمجلس أعددته
لا غرو فاسمك بيننا إقبال

قالوا بأنك مثل مي زيادة
بل فيك أنت تضرب الأمثال

○ ○ ○ ○ ○

عدل ابن المبارك عن الحج
فحج عنه ملك من الملائكة!!

ومن الحكايات والقصص المليئة بالعبر. والآخذة بلب كل ذي عقل وفكر ونظر، هذه القصة التي رواها ابن المبارك واسمه أبو عبد الرحمٰن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي مولاهم ولد بمرو الروذ سنة ١١٨هـ وتوفي عام ١٨١هـ ودفن في هيت بالعراق.

حدّث عن نفسه بقوله: كنت ولعاً بحج بيت الله الحرام شديد المداومة في كل عام. ففي بعض السنين لما قرب الحج تأهبت له فقمت وشددت على وسطي كيساً فيه خمسمائة دينار. وخرجت إلى السوق لأشتري إبلاً للحج فلم يقع في يدي ما يصلح للطريق. فرجعت إلى منزلي فرأيت في الطريق امرأة جالسة على مزبلة وقد أخذت دجاجة ميتة وهي تنتف ريشها من حيث لا يشعر بها أحد، فوقفت قريباً منها وقلت: لم تفعلين هذا يا أمة الله؟ فقالت: امض لشأنك واتركني. فقلت: سألتك بالله إلا ما أعلمتيني بحالك.. فقالت: اعلم أنني امرأة علوية ولي ثلاث بنات صغار وقد مات قيمنا ولنا ثلاث ليال بأيامهن على الطوى لم نطعم شيئاً. وقد خرجت عن بناتي وهن يتضورن جوعاً لألتمس لهن شيئاً فلم يقع بيدي غير هذه الدجاجة الميتة. فأردت إصلاحها فقد حلّت لنا الميتة فلما سمعت ما قالت وقف شعري واقشعر جلدي، وقلت في نفسي: يا ابن المبارك أي حج أعظم من هذا. فقلت لها: أيتها العلوية إن هذه الدجاجة حرمت عليك افتحي حجرك حتى أعطيك شيئاً من النفقة. ثم حللت الكيس



وصببت الدنانير في حجرها بأجمعها فقامت مسرورة ثم دعت لي بخير فرجعت إلى منزلي. ونزع الله إرادة الحج من قلبي فلزمت منزلي واشتغلت بالعبادة. وخرجت القافلة إلى الحج.. فلما قدم الحاج من مكة خرجت للقاء الإخوان فصافحتهم فكنت لم ألق أحداً ممن يعرفني إلّا وهو يقول لي يا ابن المبارك ألم تكن معنا ألم نشاهدك في موضع كذا وموقف كذا؟! فتعجبت من ذلك. فلما رجعت إلى منزلي وبتُّ تلك الليلة رأيت في منامي رسول الله ﷺ وهو يقول: يا ابن المبارك إنك لما أعطيت الدنانير لابنتنا وفرجت كربتها. وأصلحت شأنها وشأن أيتامها بعث تعالى ملكاً في صورتك يحج عنك في كل عام ويجعل ثواب الحج لك إلى يوم القيامة. فما عليك إن حججت أو لم تحج فإن ذلك الملك لا يترك الحج عنك إلى يوم القيامة. فانتبهت وأنا أحمد الله تعالى على هذا التوفيق.

ولابن المبارك أقوال شعرية تفيض بالابتهال إلى الله والزهد في الدنيا، منها هذه الأبيات:

أيا ربِّ يا ذا العرش أنت رحيم
وأنت بما تخفي الصدور عليم

فيارب هل لي منك حلماً فإنني
أرى الحلم لم يندم عليه حليم

ويا رب هب لي منك عزماً على التقى
أُقيم به في الناس حيث أُقيم

ألا إن تقوى اللّه أكرم نسبة
يُسامي بها عند الفخار كريم

إذا أنت نافست الرجال على التقى
خرجت من الدنيا وأنت سليم

أراك امـرأ تـرجـو مـن الـلّـه عَـفْـوَهُ
وأنـت عـلـى مـا لا يُـحـبُّ مـقـيـم

وإن امـرأ لا يـرتـجـي الـنـاس عـفـوه
ولـم يـأمـنـوا مـنـه الأذى لـلـئـيـم

فحتى متى تعصي الإله؟ إلى متى؟
تـبـارز ربـي إنـه لـرحـيـم

أخيراً لعل في تجار عصرنا الذين يمتطون فاره السيارات يصحبهم الخدم والحشم من ينظر إلى هذه القصة نظر المعتبر الذي يبحث عن وسيلة يتقرب بها إلى الله.

○ ○ ○ ○ ○

ابتهال شعري

ما أكثر الموضوعات التي تتطلب تجريد القلم للكتابة عنها سواء منها ما حوته بطون كتب التراث. أو ما نقرؤه في عصرنا الحاضر على الصفحات الأدبية في الصحف والمجلات والإصدارات الدورية.

وفي مجال الشعر مثلاً نرى الشعراء القدامى ما بخلوا علينا بشيء من ذلك.

وإذا ما قصرنا الحديث على ما كان مدوناً من الأشعار ذات الطابع الإسلامي البحت وجدنا أن دواوينهم مليئة بالقصائد التي تعالج أوضاع المسلمين حيناً وحيناً تحثهم على الاستمساك بالإسلام. والتوجه إلى الله بأقوالهم وأفعالهم بقلوب خاشعة وأعين دامعة من خشية الله.

ولعل الابتهالات والتوجهات إلى الله من أشهر قصائدهم فعسى الله أن يثيبهم على صنعها.

وإذا كان لكل جديد لذة كما يقولون فإنه من الطبيعي أن يكون لجديد الثقافة والعلوم نصيب في ذلك.

وإذا كان الجديد شعراً ابتهالياً فإنه يبشر بأن دعاة يدعون إلى صراط الله العزيز الحميد بأساليبهم الشعرية التي نأمل أن تكون مؤثرة، وأن يكثر الله منها لتكون إضافة إيمانية حسنة إلى ما لدينا مما خلفه الأقدمون من الابتهالات التي تحرك القلوب نحو خالقها.

والشاعر السعودي المعاصر نايف رشدان واحد من الذين يساهمون



بقدر استطاعتهم في زيادة رصيد الابتهالات إلى الله بالأساليب الشعرية.

وذلك مثل قصيدته الابتهالية التي أقتطف منها الأبيات التالية:

بمن تلوذ إذا ما نابك الوجل؟
ومن يعينك إن ضاقت بك الحيل؟

ومن يجيرك في دنياك من يدها؟
ومن عليه مدى الأيام تتكل؟

ومن إذا الهم هاجت كل قسوته
برحمة منه فاض النور والأمل

ومن يجفف دمعاً بتّ تنثره؟
ومن إليه مع الأسحار تبتهل؟

إن مسّك الضر تُفْن الليل تسأله
يا فارج الغم يا غوثاً لمن سألوا

يا من يكون مدى آلامنا سنداً
فيكشف الكرب ما لعدله مثل

سلوى الفؤاد إذا ما ريع من نُوب
أو ارتمى الحزن في الأعماق يشتعل

كم ينشر البرء في الأسقام قاطبة
ولا يؤود قضاه الحادثُ الجلل

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ نحواً من ١٩ بيتاً وقد قرأتها في العدد ١١١٦٣ من جريدة الرياض السبت ٢٩ رمضان المبارك عام ١٤١٩هـ.

○ ○ ○ ○ ○

عينها عيني

حملت العصا حيث استدعى ألم ركبتي حملها. فاستغرب من كان معتاداً رؤيتي بلا عصا من الأصدقاء وغيرهم من المعارف.

وسألني أحدهم ما السبب الذي دعاني إلى حملها؟ فقلت له: أستعين بها على السير. ثم أنه قد قيل أنها ثالثة القدمين. ومن ذا الذي لا يطمع في أن يكون له ثلاثة أقدام؟.

وألح بعضهم في معرفة سبب حملي لها. فقلت له: قبلك من سألني عن ذلك وأجبته بما يشبه الدعابة، ولعل تكرارها كإجابة لكل سائل ربما لا تقنع الأصدقاء الخلصاء أمثالك. ولهذا قررت صياغة إجابة تقطع كل سؤال حول حملي العصا. وقد فضلت أن تكون الإجابة متمثلة في أبيات شعرية. فكانت على النحو التالي:

يقول لماذا حملت العصا؟
فقلت ستحملها بعد حينْ

وتلزم صحبتها بعدما
تجر قطار عقود السنينْ

إذا ما بلغت من العمر عمري
وحلّ «الروماتزم» بالركبتينْ

وبحتَ بشكواك من كل عضـ
ـو ورافق شكواك بعض الأنين

وجدتَّ عصاك رفيقاً معيناً
وأيّ رفيق سواها معينْ؟



هـي الـعـون إمـا أردتَ الـنـهـو
ض وفـي الـسـيـر ثـالـثـة الـقـدمـيـن

كـذا الـدهـر ألـزمـنـي حـمـلـهـا
وقـبـلـي بـهـا ألـزم الأولـيـن

فـعـيـنـهـا عـيـنـي أسـيـر بـهـا
إلى حيث ذاك الـفـضـا الـمـسـتـبـيـن

وقد قصدت بقولي: (عينها) أي الحرف الأول من (العصا) وقصدت من (عيني) حرف «العين» (وهو في حساب الجُمّلِ) أو الأبجدي، سبعين. فعبرت بها عن سبعين سنة.

أما قولي: «إلى حيث ذاك الفضا» فقد عنيت حرف «الفاء» من الفضاء وهو في حساب الجُمّل ثمانين. فعبرتُ بها عن ثمانين سنة.

وتبقى الإشارة إلى أن هذا الموضوع ربما لا يهم القارئ بدرجة كبيرة. ولكنه بالنسبة لي ضرب من التباريح التي أرى البوح بها جانباً من جوانب الأدب الذي أُسَرُّ بعرضه على القارئ الكريم.

○ ○ ○ ○ ○

هل النقاط جمال وقوة للحروف؟!!

وبمجرد إلقاء نظرة على الحروف الهجائية نرى أن معظمها معجماً وهو الذي يكون منقطاً. والبعض الآخر مهملاً وهو المجرد من النقاط. ومنها ما هو متشابه من حيث الرسم والشكل والهيئة ولا يميزها الإعجام. والإهمال. وذلك كالحاء وأختيها. والدال وأختها. والراء وأختها. والسين وأختها. والصاد وأختها. والطاء وأختها. والعين وأختها.

ولا أدري هل عجمة الحروف قد منحتها مع جمال الشكل قوة تفوق فاعلية أخواتها المهملة؟ أم أن الإهمال معنى من معاني الجمال الخاص بالحروف، وإذا اعتبرنا النقط بمثابة الخال في خد الحسناء فإن العجمة تكون جمالاً للحرف المعجم في جميع الحروف الهجائية: كالباء والتاء والثاء. والفاء والقاف. والنون والياء وغير ذلك مما تقدم ذكره. فعلينا أن ننظر إلى الحروف المهملة نظرتنا إلى الفتيات العاطلات من أدوات الزينة والحلي.

ولو سألنا واضعي حساب الجمِّلِ (الأبجدية) عن ذلك التميز الحاصل بين الحروف لأدهشهم سؤالنا؟ وسيجيبوننا بالقيمة الحسابية التي اختص بها كل حرف من حروف الهجاء. وبالترتيب الأبجدي. لا على الإعجام والإهمال. الأمر الذي يجعل هناك تفاوتاً من حيث القيمة العددية، فالعدد الكبير هو الذي يعطي الحرف قيمته وتميزه عما يجانسه ويتحد معه من حيث الشكل والصورة والهيئة العامة. وهنا يظهر تغابن بين الحروف الهجائية: كاغتبان الزلاء من العجزاء. والدميمة من



الجميلة. لكن تداخلها بموجب الترتيب الأبجدي الذي يعرف بحساب الجمل ربما يخفف اغتبان بعضها من بعضها الآخر. فقيمة الجيم في حساب الجمل «٣» والحاء «٨» وهذا لا يشكل غبناً صارخاً للجيم لكن تأتي الخاء وقيمتها «٦٠٠» وهذا هو الغبن في القوة العددية وكذلك الدال فهي «٤» والذال وهي أختها «٧٠٠» وهكذا نجد أن الفرق بين قوة الحروف وضعفها قد جاء بحسب الترتيب الأبجدي، وما فاز من الحروف المهملة بالقيمة العددية الكبيرة في حساب الجمل إلا حرف الراء، فهو «٢٠٠» والزاء «٧» وكذلك حرف الظاء فهو «٩٠٠» والطاء «٩» وكذلك الضاد فهي «٨٠٠» والصاد «٩٠» وكذلك الغين فهي «١٠٠٠» والعين «٧٠»، وحساب الجُمل هذا الذي جعل الحروف من حيث القوة والضعف بهذا الشكل قد ذكره الشعراء في بعض أشعارهم وذلك مثل قول عرقلة واسمه: أبو الندى حسان بن نمير بن عجل الكلبي من قصيدة امتدح بها بهاء الدين بن نيسان الذي كان يدير أمر آمد من قبل فتحها من قبل صلاح. ولد عرقلة عام ٤٨٦هـ وتوفي عام ٥٦٧هـ. من امتداحه لبهاء الدين:

أنت الذي ملأ الملا بصلادم
وصوارم ومكارم وتفضل

يُحصى الحصى إلا مناقبك التي
يعيا بجملتها حساب الجُملِ

لك مذْهَبٌ في كل أرض مُذْهَبٌ
وثناً يفوح نسيمه كالمندل

ووصف الشاعر المشهور أبو الطيب المتنبي كلب صيده في قصيدة امتدح عبد الرحمٰن بن مبارك الأنطاكي. فقال:

وبين أعلاه وبين الأسفل
شبيه وسمّى الحضار بالولي



كـــأنـــه مُـــضـــبّـــرٌ مـــن جـــرولِ
مـــوثـــق عـــلـــى رمـــاح ذُبّـــل

ذي ذنـــب أجـــردَ غـــيـــرِ أعـــزل
يـخـطّ في الأرض حـسـاب الـجُـمّـل

وقال تميم بن المعز لدين الله الفاطمي ولد عام ٣٣٧هـ وتوفي عام ٣٧٥هـ ممتدحاً الخليفة العزيز بالله وواصفاً فرساً له:

وكـــأن دَفّـــة ســـرجـــه ولـــجـــامـــه
شُـدّا عـلـى ظـهـر الـسـمـاك الأعـزل

وكـأن حـافـره إذا وطـئ الـحـصـى
شـدّا يـخـط بـه حـسـاب الـجُـمّـلِ

وشَدّ في البيت الثاني بمعنى: عدا عدواً.

○○○○○

تُقَارَنُ الأذن بالعين أحياناً في جلب الهوى!!

يكثر الكلام عن الأذن ومالها من تأثير محرك للحواس الأخرى، فهي والعين رسولان ينقلان للقلب على وجه السرعة أي حدث ساراً كان أو محزناً.

ولعل بعضهم يقارن الأذن في مجال العشق بالعين، وربما جعلها أسبق من العين إلى نقل الصورة إلى القلب. وذلك مثل ما جاء في قول بشار بن برد: «والأذن تعشق قبل العين أحياناً».

والحقيقة أن الأذن ربما كانت أداة تجتذب الهوى إلى النفس حتى وإن كان صاحبها مبصراً. ليس أعمى كبشار بن برد.

والأذن بطبيعتها قد ترسم مصدر الصوت بحسب ما تتلقاه من الأصوات رسماً كأنما العين قد أوحت به إليها.

وطبيعة وظيفة الأذن قد جعلتها من أهم حواس الإنسان. إذ هي تنقل الصوت إلى صاحبها أسرع مما تنقله العين إليه. ولهذا وصفوا بطريقة علمية تطبيقية سرعة انتقال شيء من مكان إلى آخر بسرعة الصوت الذي تدركه الأذن قبل العين، وإذا كان متناهياً في السرعة. وصفوا سرعته بأنه يسبق الصوت كبعض الطائرات النفاثة. تسمع صوتها عن يمينك وجسمها قد توغل في الجهة التي عن يسارك.

وفي مجال العشق المرتبط بتذوق الأصوات نرى أن أذن العربي قد كان لها ذوق يجاري ذوق العين في بعض الأحيان. فهي تقبل على سماع الصوت الجميل المتناغم وتطرب له.. ففي مجال الترجيعات الصوتية الجميلة للألحان الموسيقية والأغاني غير العربية نجد العربي



يصغي لها ولو لم يكن يعرفها. من ذلك أن أبا تمام سمع مغنية تغني بالفارسية فاستحسن الصوت. ولم يعرف المعنى. فقال في ذلك قصيدة منها:

شكرتكِ ليلة حَسُنتْ وطابت
أقام سرورها ومضى كراها

إذا وهداتُ أرضٍ كان فيها
هواك فلا تحنُّ إلى رباها

سمعتُ بها غناء كان أولى
بأن يقتاد نفسي من غناها

ومسمعة يحارُ السمعُ فيها
ولم تصممهُ لا يصمم صداها

مرت أوتَارهَا فَشَفَتْ وشاقتْ
ولو يسطيع حاسدُها فداها

فما خلتُ الخدودَ كسبن شوقاً
لقلبي مثل ما كسبت يداها

ولم أفهم معانيها ولكن
وَرَت كبدي فلم أجهل شجاها[1]

فبتُّ كأنني أعمى معنًّى
يحب الغانيات وما يراها

○○○○○

(١) ورت: اتقدت.

ما هي القصيدة التي يجب أن تسبق نقطة نهاية الديوان؟!!

ويرى بعض جُمّاع الشعر أن تكون القصيدة التي تسبق نقطة نهاية الديوان الذي يتولى جمعه وتبويبه شبيهة من حيث القوة والفنية الأدبية بأول قصيدة أفتتح بها الديوان لينتهي القارئ بمثل ما ابتدى به من إعجاب وإطراب. ولتنسيه بعض الملاحظات التي مر بها في ثنايا الديوان.

وهذه الطريقة بما لها من جاذبية تشبه من حيث الاشتياق إليها بما يقدم قبل الوجبة من مشهيات. وبما يقدم بعدها من فواكه وحلويات.

والشاعر الذي يتخذ من هذا التنسيق التشويقي مبدءاً عند جمع شعره وحصره في ديوان يقدمه للقارئ في ثوب جميل يدعو إلى قراءته. وربما إلى اقتنائه يحقق هدفاً أدبياً خاصاً به.

ومن الشعراء وخاصة منهم الإسلاميين من لا ينظر إلى هذا التبويب الفني أو هذه الطريقة التشويقية إن صح التعبير. وإنما يرى أن الختام يجب أن يكون حسناً. وأن تكون الغاية منه أبعد هدفاً من توازن النهاية مع البداية. بل تجده يحرص أن يكون آخر الديوان موصوفاً بمسك الختام. كأن يجعل ما على الورقة الأخيرة منه قصيدة ابتهالية مشحونة بتمجيد الله جل شأنه. ومملوءة بالدعاء والاستغفار أملاً في أن يمحو ما وقع فيه من زلل في بعض القصائد أو ما حصل له من تجاوزات في بعض تغزلاته إن كان قد تغزل في بعضها. أو ما إلى ذلك مما فرضته عليه المبالغة، أثناء وصف أو تشبيه أو افتخار أو هجاء أو مديح.



والحقيقة أننا نلاحظ وجود هذه الطريقة في كثير من دواوين الشعراء الإسلاميين وذلك مثل ديوان «الدر المنظوم لذوي العقول والفهوم» لعبد الله بن علوي الحداد، طبعة حجرية سنة ١٢٨٠هـ. وقد كانت خاتمته قصيدة ابتهالية. منها قوله:

هو غفّار الخطايا
هو خير الراحمينا
رب وأد خلنا جميعاً
في العباد الصالحينا
وارض عنا واعف عنا
وأجرنا أجمعينا
من عذاب في جهنمْ
أرصدت للمجرمينا
وعصاة فاسقينا
وعُتاةٍ كافرينا
ربّ وأد خلنا جناناً
أزلفت للمتقينا
إذ ينادون ادخلوها
بسلام آمنينا
وصلاة الله تغشى
أحمد الهادي الأمينا

○ ○ ○ ○ ○

كيف أكل الذئب حُبْشاً؟!!

وحُبْش هو اسم لأحد خراف أم الفرزدق الشاعر الأموي المشهور. وقد أكله الذئب من بين الأغنام التي كان الفرزدق يرعاها.

يقول الفرزدق: إن الذئب أكل حبشاً على حين غفلة منه، ويعلل الفرزدق غفلته بأنه كان يفكر في بلوغ أمور كبيرة، وأن رعي الأغنام يجب أن لا يكون من الأعمال التي توكل إليه وأمثاله. فهو يتطلع إلى مناصب قيادية لا أن يكون راعي غنم طول حياته، وأن هذا التفكير في المصير هو الذي جعله يغفل عن مراقبة أغنام أمه أثناء رعيه لها.

وكأنما الذئب قد كان يعلم بأن الفرزدق كان مشغولاً عن الأغنام في رسم خطوط المستقبل وتحديد الهدف الذي يجب أن يبلغه. فانتهز الفرصة وهجم على الأغنام فوقع الخروف حبش فريسته.

وقد كان من الطبيعي أن تلومه أمه على إهماله وعدم يقظته. فكانت إجابته على لومها إيّاه. شعراً جاء في أبيات قال فيها:

ولائمتي يوماً على ما أتت به
صروف الليالي والخطوب القوارعُ

فقلت لها: فيئ إليك واقصري
فأوم الفتى سيف بوصليه قاطع

تلوم على أن صَبّحَ الذئب ضأنها
فألوى بحُبْشٍ وهو في الرعي راتع



وقد مَرّ حول بعد حولٍ وأشهر
عليه ببؤس وهو ظمآن جائع

وبعد ذلك يستعرض إقدام الذئب. ويرى فيه مثلاً لمن كان يطمع في الوصول الذي ينشده:

فلما رأى الإقدام حزماً وأنه
أخو الموت من سُدتْ عليه المطالع

ثم يصور حالة انتهاز الفرص التي تحقق الغاية المنشودة:

أغار على خوف وصادف غرّةً
فلاقى التي كانت عليها المطامع

وبعد ذلك يختم الشاعر الفرزدق هذه الحكاية الشعرية الظريفة بذكر الأسباب التي جعلت الذئب يظفر بأكل الخروف حُبْش:

وما كنت مضياعاً ولكن همتي
سوى الرعي مفطوماً وإذ أنا يافع

أبيتُ أسوم النفس كلَّ عظيمةٍ
إذا وَطُؤتْ بالمكثيرين المضاجع

○ ○ ○ ○ ○

لَزّ ضلعه... وظلع من رجله..

زارني في سُنيات مضت بعض الأصدقاء. فطلب أحدهم ماءً بأسلوب تعوزه لطافة الطلب فأحضرت الماء. ومددته له بأسلوب تنقصه الرقة حيث قلت: هاك الماء فاشرب حتى تلز ضلعك (فاستغرب بعضهم لفظة) تلز، ولم أأبه باستغرابه حينها.

ورأيت أحد الجيران الظرفاء يغمز من رجله وهو يمشي. فقلت له: أراك تظلع!! فلم ترق له لفظة (تظلع) فرد مداعباً بقوله: إن هذه اللفظة خاصة بالدواب.

وحتى أأدب نفسي بطرح تلك الألفاظ إن كانت غير لائقة، أو ألتزمها إن كانت لغة صحيحة وموافقة رجعت إلى لسان العرب. فوجدت أن لَزّ، هو لَزّ الشيء بالشيء، وألزه ألزمه إيّاه. واللزز: الشدة. ولزه يلزه ولزازاً، أي شده وألصقه، وعلى هذا فإن الإنسان إذا شرب أو أكل حتى يمتلئ بطنه فإن بطنه يلز أضلاعه ويلصق بها، ولا غرابة فيما قلت لصحة لغته، والأضلاع مفردها ضلع. يقال: ضلع وأضلاع وأضلع. وأضالع وضلوع قال الشاعر:

واقتل ماء العين من كل زفرة
إذا وردت لم تستطعها الأضالع

وتضلّع الرجل: امتلأ ما بين أضلاعه شبعاً ورِيّاً، قال ابن عناب الطائي يصف جائعاً استضافه:

دفعت إليه رسل كوماء جلدة
وأغضيتُ عنه الطرف حتى تضلعا

ووجدت أن الضَّلْع ـ بالضاد ـ: الميل. وبتحريك اللام: الاعوجاج



خلقة يكون في الشيء من الميل قال محمد بن عبد الله الأزدي:

وقد يحمل السيف المجرّبَ ربه
على ضلع في متنه وهو قاطع

فإن لم يكن خلقه فهو الضّلْع بسكون اللام. تقول منه: ضَلِعَ بالكسر يضْلَعُ ضلعاً وهو ضلع. ورمح ضَلِعٌ معوجٌ لم يقوم. وأنشد ابن الشبل:

بكل شعشاع كجذع المزدرع
فليقه أجرد كالرمح الضّلِعْ

والظلع. بالظاء، هو كالغمز: ظَلَعَ الرجل والدابة في مشيه يظلع ظلعاً. عرج وغمز في مشيه.

يقول أبو ذؤيب يذكر فرساً:

يعدو به نَهِش المشاش كأنه
صَدْعٌ سليم رجعه لا يظلع

ويقال: ظلعَ يظلع ظلعاً: مال، قال النابغة:

أتوعد عبداً لم يخنك أمانة
وتترك عبداً ظالماً وهو ظالع

قال ابن الأثير: ولو روى بالظاء من الظلع العرج والغمز لكان وجهاً.

والشواهد على الضلع الذي هو الميل، وعلى الظلع الذي هو العرج كثيرة جداً. وأضيف إلى ما تقدم قول جرير في هجاء الفرزدق:

إذا مدّ غلو الجري طاح ابن فرتنا
وجدّ التجاري فالفرزدق ظالع

وقوله من قصيدة أخرى:

إذا بلّغ اللّهُ الخليفة لم تُبَلْ
سِقاط الرزايا من حسير وظالع

أضلاع الإنسان.. وأعمدة المسجد!!

في إحدى الجلسات الأدبية. طرح أحد الجلساء سؤلاً غريباً وبعيداً عن المحور الذي كان الحديث يدور عليه، إذ قال: من منكم يعرف عدد أضلاع الإنسان؟.

فما أجاب أحد منا إجابة صحيحة. وإنما هناك تخمينات لم يصب أي منا الإجابة الصحيحة.. والحقيقة أنه سؤال مفاجيء تماماً. قد أشبه من حيث المفاجأة سؤالاً طرح على رجل كان يتعبد في مسجد جامع. ويقضي فيه معظم أوقاته قارئاً ومتنفلاً، طرحه عليه شخص جلس إلى جانبه وأخذ يحدثه في أمور الدين، ثم سأله: كم عدد أعمدة هذا المسجد الذي تطيل المكث فيه؟ فقال: لا أدري، إنه سؤال مفاجئ. ولو علم أن أحداً سيسأله لعدها وحفظ عددها في صدره.

ونعود إلى أضلاع الإنسان لنكون على علم بها. فالأضلاع جمع ضلع تقول: ضلع وأضلاع وأضلع وضلوع. وعددها ٢٤ ضلعاً ١٢ منها على اليمين و١٢ منها على اليسار. وأطول كل منها ما يلي الصدر ثم تتدرج في القصر حتى أسفل البطن.

وقد ذكر الشعراء الأضلاع في كثير من أشعارهم. وذلك مثل قول الشاعر الأموي جرير واسمه: جرير بن عطية بن حذيفة بن بدر ينتهي نسبه إلى تميم بن مر مات سنة ١١١هـ وعمره نيفاً وثمانين سنة:

فذكرن ذا الأعوال والشوقِ ذكره

فهيجن ما بين الحشا والأضالع

وقول تميم بن المعز لدين الله الفاطمي ولد عام ٣٣٧هـ وتوفي عام ٣٧٥هـ:



مكنون سرك في فؤادي ثابت
بين الجوانح والحشا والأضلع

ويقول العباس بن الأحنف، من بني حنيفة توفي عام ١٨٨هـ:

كأن هموم الجن والإنس أُسكنت
فؤادي فما تعدو فؤادي وأضلعي

ويقول السري الرفاء واسمه: أبو الحسن السري بن أحمد بن السري الكندي توفي سنة ٣٦٠هـ:

شكوتُ الذي تشكو إليّ كأنما
تَجِنُّ ضلوعي ما تَجِنُّ ضلوعها

ويقول عمر بن أبي ربيعة واسمه: أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة حذيفة بن المغيرة من بني مخزوم بن يقظة بن مُرّة. ولد عام ٢٣هـ وتوفي عام ٩٣هـ:

لا تلمني في اشتياقي إليها
وابك لي مما تُجِنُّ الضلوعُ

ويقول الوليد بن يزيد المولود عام ٩٠ والمتوفى عام ١٢٦هـ:

يقولون: لا تجز وأظهر جلادة
فكيف بما تُحْنَى عليه الأضالع

وقال عبيد الله بن قيس الرقيات بن شُريح بن مالك بين ربيعة ينتهي نسبه بعبد مناة بن كنانة توفي عام ٧٥هـ:

بات قلبي تشفه الأوجاع
من هموم تجنها الأضلاع

من حديث سمعته منع النو
م فقلبي بما سمعتُ يراع

ضَلَع ـ بالضاد... وظَلَع ـ بالظاء!!

تتداخل الضاد مع الظاء، إذا تجانست بقية الحروف فيما بعدها في الكلمة كضَلَع. وظلع، فيحصل في كثير من الإملاآت تداخلاً خاصة في كتابة. الضّلْع بسكون اللام. وهو الميل والانحراف بوجهة النظر مع أحد المتخاصمين، يقال ضلع فلان مع فلان أي أصبح مؤيداً له، ويقال فلان ضالع في الأمر أو في القضية أي كان له فيها يد محركة. ويقال فلان ضليع في كذا أي عالم به ومتعمق في معرفته ويقال فلان ضلع في الشيء أي ظهرت فيه قوته وشدته.

يقول سبط التعاويذي واسمه: أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله المعروف بسبط التعاويذي ولد عام ٥٢٩هـ وتوفي عام ٥٨٣هـ واصفاً القوي بالضليع وهو يمتدح مجد الدين بن الصاحب سنة ٥٨٣هـ:

نيطتْ أمور الملكِ من آرائه
بقَوٍ اشمٍّ المنكبين ضليع

ويقول أيضاً من قصيدة يمتدح بها عضد الدين ابن رئيس الرؤساء سنة ٥٤٩هـ:

طلبوا مداك على تقاصر خطوهم
لو أدركت شأو الضليع الضُّلَّعُ

ويقول ظافر الجداد واسمه: ظافر بن قاسم بن منصور بن عبد الله ينتهي نسبه إلى جري من بني جذام ولد عام ٤٥٠هـ تقريباً وتوفي عام ٥٢٩هـ تقريباً. وقد ضَمّن بيته الظلع وهو العرج. والضليع وهو التعمق في القوة:



كأن ليالي الهجر طولاً وظلمة
حكتهنّ في الحالين منه فروع

وخصر كصبري فوق ردفٍ كصده
فذا ظالع واهٍ وذاك ضليع

والضّلَع بتحريك اللام هو الاعوجاج خلقة تكون في الشيء من الميل. فإن لم يكن خلقة فهو الضّلْع بسكون اللام وهو الميل تقول ضلع بالكسر ويضلع ضلعاً وهو ضالع ورمح ضلع. معوج لم يقوم.

أما الظلع بالظاء فهو الغمز في المشي يقال للرجل وللدابة ظلع يظلع ظلعاً. أي عرج وغمز في مشيه.

يقول المتنبي واسمه: أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي ولد عام ٣٠٣هـ وتوفي عام ٣٥٤هـ مادحاً عبد الواحد بن العباس بن أبي الصبغ الكاتب. وذاكراً الظلع الذي هو العرج:

أكلتْ مفاخرك المفاخر وانثنت
عن شأوهن مطيُّ وصفي ظلعا

وجرين مجرى الشمس في أفلاكها
فقطعن مغربها وحزن المطلعا

ويقول أبو العلاء المعري واسمه: أحمد بن عبد الله بن سليمان الضرير ولد عام ٣٦٣هـ وتوفي عام ٤٤٩هـ:

ولتركب الجنح لا عَوداً ولا فرساً
كأنما الشهب فيه الأنيق الظُلُع

ويقول الشريف المرتضى واسمه علي بن الشريف بن الحسين بن موسى ينتهي نسبه إلى موسى بن جعفر ولد عام ٣٥٥هـ وتوفي عام ٤٣٦هـ:

فليت المطايا إذ حملن لنا الهوى
حُدين عُشياً وهي حسرى وظلع

قال ابن الأثير: ولو روى بالظاء من ضلع العرج والغمز لكان وجهاً. أي لما خطئ في كتابته لها.

○○○○○

محمد عبده عزام.. أهمل ترجمة أبي تمام!!

والأستاذ محمد عبده عزام الذي اشتغل وقتاً من الأوقات مدرساً بمعهد اللغات الشرقية بجامعة لندن، أقدم على حد تعبيره. على تحقيق ديوان أبي تمام ذلك الديوان الذي تولى شرحه والإفاضة في نقده ودراسته أئمة الأدب وعلماء اللغة كأبي العلاء المعري المتوفى سنة ٤٤٩هـ، وأبي بكر الصولي المتوفى سنة ٣٣٥هـ، وأبي علي أحمد بن ممد المرزوقي المتوفى سنة ٤٢١هـ، والخطيب التبريزي المتوفى سنة ٥١٢هـ. وأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري المتوفى سنة ٣٧٠هـ. وأبي الريحاني محمد بن أحمد الخوارزمي المتوفى سنة ٤٤٠هـ وغيرهم من علماء اللغة كالأصمعي والآمدي المتوفى سنة ٣٧٠هـ.

والحقيقة أن محمد عبده عزام قام بعمل ليس بالسهل على كل باحث. وهذا ما نتنبه إليه من خلال الديوان بصفة عامة. ومن خلال قراءتنا للمقدمة التي خبرها في ٤١ صفحة وشغلها بذكر بعض المراجع التي اعتمدها. وببعض ملاحظاته عليها.

والغريب في الأمر أنه لم يترجم لأبي تمام نفسه لا من بعيد ولا من قريب.

والحقيقة أن أبا تمام علم من أعلام الشعر مثله في ذلك مثل المتنبي وأبي العلاء المعري. والبحتري وغيرهم ممن كان في عصره أو تقدم عليه قليلاً. لكن قارئ اليوم يحتاج إلى من يُعرّفه بصاحب هذا الديوان الضخم الذي اهتم به علماء اللغة وأئمة الأدب كما أسلفت.



ولو أن الأستاذ محمد عبده عزام الذي أجزم بأنه جاء في ذهنه أن المعروف لا يُعَرّف. ألقى نظرة على كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان مثلاً لوجده يقول: أبو تمام هو: حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن الأشج ينتهي نسبه إلى يعرب بن قحطان ولد عام ١٩٠هـ وتوفي سنة ٢٣١هـ.

ولعله من المناسب أن نختم هذه الملاحظة البسيطة باقتطاف أبيات من بعض قصائده وذلك مثل قوله:

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل
ويكدي الفتى في دهره وهو عالم

ولو كانت الأقسام تجري على الحجى
هلكن إذاً من جهلهن البهائم

ويقول في نفس القصيدة التي منها البيتان السابقان مبيناً دور الشعر في مجال الحماسة:

ولولا خلال سنها الشعر ما درى
بغاةُ الندى من أين تؤتى المكارم

ويقول من قصيدة أخرى:

إذ المرء أبقى بين رأييه ثلمة
تُسدُّ بتعنيف فليس بحازم

ويقول أيضاً من قصيدة يمتدح بها أبا سعيد:

قُسِمَ الحياء على الأنام جميعهم
فنهضت أنت فقدته بزمامه

وتقسم الناس السخاء مجزأً
فذهبت أنت برأسه وسنامه

وتركت للناس الإهاب وما بقي

من فرثه وعروقه وعظامه

ويقول من قصيدة أخرى:

ليس الصديق بمن يعيرك ظاهراً

متبسماً عن باطن متجهم

○ ○ ○ ○ ○

الكتابة عن رمضان لا تحدها نقطة نهاية!

جاء رمضان المبارك لعام ١٤١٩هـ وأنا أشتغل في الجزء الخامس عشر من كتابي: «الأدب المثمن» وقد اعتدت أن أكتب في كل رمضان من الرمضانات موضوعاً أو موضوعين أو أكثر عن رمضان.

والحقيقة أن الكتابة عن رمضان المبارك لا تحدها نقطة نهاية، فالكتابة عنه تتشعب والقول فيه يطيب ويكثر بما ليس يقدر بما له من فضل وتحيز عند المسلمين فهو وعاء تكامل فيه نزول القرآن الكريم الذي هو دستور الأمة الإسلامية من تمسك بتعاليمه. وأقام حدوده. وتأدب بآدابه فلن يضل مدى حياته. وينال السعادة في يوم لا يغني فيه المال والبنون. ولا ينجو من هوله ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٩].

والمسلمون يداخل نفوسهم شغف به. وفرح بقدومه. لأنه عبارة عن أرض روحانية خصبة ترتع فيها النفوس وهي مطمئنة بنيل الرضا والمثوبة من الله..

كيف لا. والرسول الكريم ﷺ قد أخبر بأن أوله رحمة. وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار، فشهر هذه صفاته لا بد أن يستبشر بقدومه ويحتفى بحلوله. وتفرغ النفوس لالتماس نفحات ربه.

وإذا كان التاج يزين الملك ويزيده وقاراً وهيبة. وعقد الذهب يزيد حسن الحسناء حسناً وجمالاً. فإن ليلة القدر التي تلتمس في العشر الأواخر من رمضان وهي عشر العتق من النار. هي خير من ألف شهر بنص الآية الكريمة من سورة القدر: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ فإنها قد أضافت إلى فضائل هذا الشهر فضيلة لا يقاس أضعاف



الأجر فيها عما سواها بآلاف الحسنات. وإذا حل رمضان فإن الشعراء يمجدونه بأشعار كيف لا وهذا الشاعر المعاصر محمد عباس عبد الحميد خلف يقول من قصيدة له:

رمضان من بين الشهور تألقت
أنواره. غمرت هنا الأنحاءَ

ليس الصيام سوى قلوب عمها
صدق العقيدة ذمة ووفاءَ

نور القلوب يضيء إذ ما أظلمت
جنبات عيش المرء ضاق بلاء

من صام عن صدق سيعرف كم به
يحوي الصيام تنعماً وهناء

سبحان ربي أنت منعم دائماً
تعطي العباد منافذاً ورجاء

في أكرم الأيام تجعل صومها
عتقاً من التعذيب جاء فداء

وخصصت أجر الصوم عندك إنه
سر لدى الرحمٰن ليس رياء

والقصيدة طويلة فهي تبلغ ١٨ بيتاً وقد نشرتها جريدة اليوم في عددها ١٥٥١٤ يوم السبت ٨ رمضان عام ١٤١٩هـ ومنها أيضاً هذا البيت:

جَعَلَ الصيام وقاية من ناره
بالعتق ما أسمى النجاة جزاء

○ ○ ○ ○ ○



حالة عاشق

مسكين ذلك الإنسان الذي يعشق من لا يعشقه. ويحب من لا يحبه. ويُقْبل على من يصد عنه. ويهوى من يهجره. ويتقرب إلى من يتباعد عنه.

والحقيقة أننا لو طلبنا من شاعر غزلي رسم صورة لحالته أو لعاشق من العشاق غيره قد استولت عليه الحيرة. وتفرق أمر حبه. فلا يدري أين يتجه. ولا يعرف ماذا يفعل لما وجدنا شاعراً غزلياً يترجم تلك المشاعر مثل الشاعر العباس بن الأحنف المتوفى سنة ١٨٨هـ الذي شكا كثيراً في جميع أشعاره من تلك المعاناة. وسجل بعض موجات قسوتها في أسلوب شعري تداخلت فيه البلاغة والمبالغة وحسن السبك مع جودة الصناعة. فجاء غاية في إحكام الصورة. قال في ختام إحدى قصائده:

صرم الأحبةُ حبله فكأنه
إذ غادروه وضَرَّه الإضرار

رجلٌ تطاول سُقمه في غربة
نزحت به عن أهله الأسفار

وعلينا أن نتصور هذا التشبيه المحزن. وكيف تكون حالة غريب بعيد عن أهله وبلاده أصيب بالمرض فمن يا ترى يمرضه. ومن يزوره. ومن يرأف بحاله لسُقمه؟. إنها معاناة ما بعدها معاناة من حيث الضرر الجسمي والفكري الذي تعطلت بسببه جميع الوسائل التي يمكن أن يلتمس بها حيلة يحتال بها لنفسه:



لا يستطيع من الضرورة حيلةً
أمسى تُرجّمُ دونه الأخبار

لكنه في هذه اللحظات الحرجة من حياته امتد له خيط أمل في الحياة حيث مرَّ به ركب فحملوه:

حتى أتيح له وذاك لحَيْنه
ركب رمت بهم الفجاجُ تجارُ
حملوه بينهم نحيلاً جسمه
عاري العظام ثيابه أطمارُ

وكانوا قد أحسنوا معاملته، وترفقوا به. وهم يقطعون المهامة والقفار:

فثوى تقلبه الأكف ملقفا
وله تشدُّ وتوضع الأكواز

وفي وسط المهامة انقطع الذي كانوا قد حملوه على كوره. ولم يعد معهم ما يحملونه عليه فتركوه ومشوا في طريقهم:

حتى إذا سلكوا به في مهمه
قفر تضلُّ به القطا وتَحارُ
غَرِضوا من النّضوِ العليل فعطلوا
منه الركاب وخلفوه وساروا

مسكين من تكون هذه حالته من العشاق الذين يُبادلُ عشقهم بعشق. ولا تواصلهم بتواصل.

○○○○○

وشاية دمنة.. سببت حرب الثور والأسد!!

وبعض الشعراء يتخذ من ضرب الأمثال لما هم عليه من حال. أسلوباً يساعدهم على نقل مشاعرهم بصورة مفيدة ومختصرة، أقول هذا حيث استوقفني بيت للشاعر العباس بن الأحنف المتوفى ١٨٨هـ الذي وصف فيه ما قام به مفسد لما كان بينه وبين محبوبته فوز:

فلم تزل بالرقى حتى لقد تركت
ما بيننا مثل حرب الثور والأسد

وحكاية الثور والأسد قد جاءت ضمن كتاب «كليلة ودمنة» لعبد الله بن المقفع، وهي أن ابن آوى اسمه دمنة كان حارساً على باب الأسد. وقد دَبّتْ في نفسه الشجاعة وأخذ يتقرب من الأسد إلى أن أصبح الأسد يأخذ برأيه. وبينما هما في حديث إذْ خار ثور اسمه شتربة، فخاف الأسد وهَمّ بالهروب. فطمأنه دمنة. وقال له: سأذهب وآتيك بتبيان هذا الصوت فراح ثم عاد ليخبر الأسد بصفة الثور. وأبدى استعداده للإتيان به. فوافق الأسد. فانطلق إلى شتربة، وأخبره بأن الأسد يأمر بمجيئه. فقال: من الأسد؟ قال: هو ملك السباع وله جند عظيم فاسترهب شتربة، لكن دمنة أعطاه الأمان.

ولما مثل أمام الأسد قال له الأسد: اصحبني والزمني فإني مكرمك فكان لشتربة شأن عظيم عند الأسد، فاغتاض دمنة. وأخبر بذلك أخاه كليلة. وداوله في حيلة يحتالها، فقال كليلة: إن قدرت على هلاك الثور بشيء ليس فيه مضرة للأسد. فشأنك. فباشر دمنة على التملق في نقل خبر بأن شتربة يدبر انقلاباً ضده بالاتفاق مع رؤوس الجند. وأخاف عليك من خيانته وغدره. فلم يأب الأسد بذلك، ومع سياق أمثلة

الخيانة التي رواها دمنة. ساور الأسد شك في شتربة، ثم ذهب دمنة إلى شتربة ونقل إليه أن الأسد يريد أن يأكله. ونصحه أن يستسلم للأسد ليأكله. وساق أمثلة لمن نجا حين استسلم. قال شتربة: لن أستسلم والحق معي عن الدفاع عن نفسي. فنصحه دمنة ألا يخاطر بنفسه. وساق له أمثلة من سوء عاقبة المخاطرة، وقال له لكي تعلم صدق قولي. اذهب إلى الأسد وانظر إليه فستراه مقعياً رافعاً صدره صاراً أذنيه. وفاغراً فاه مستعداً للوثب، وجاء شتربة إلى الأسد فرآه كما وصفه دمنة فواثبه وسالت دماؤهما. فقال كليلة لأخيه دمنة: هذا ثمرة عملك. ولست بناج من العقوبة. لأنك ذو لونين ولسانين.

ولما قتل الأسد شتربة حزن عليه لماله من آراء سديدة يقدمها للأسد. ثم أن الأسد علم بكذب دمنة عليه وغدرهُ وفجوره. فقتله شر قتلة.

ونعود إلى القصيدة الغزلية التي تضمنت البيت الآنف الذكر. لنقتطف منها ما نختم به هذا الموضوع. يقول العباس بن الأحنف:

إنـي لأحـسـب والأقـدار غـالـبـة
أني وإيّاك مثل الروح في الجسد

حتى سعت بيننا يا فوز ساعية
مشهورةٌ عُرفت بالنفث في العقد

فلم تزل بالرقى حتى لقد تركت
ما بيننا مثل حرب الثور والأسد

لقد نهيتكم عنها وقلت لكم
فيها مقال شفيق القول مجتهد

يا فوز لا تسمعي من قول واشية
لو صادفت كبدي عضت على كبدي



إن كنت قلتُ الذي قالت فألبسني
ربي سرابيل نارٍ جمة العدد
ما كنت قلت لكم شيئاً يسوءكم
ولا مددتُ إلى ما تكرهين يدي
وقد غنيتُ زماناً لا أظنكم
ممن يصدق فينا قول ذي حسد

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ ١٢ بيتاً. ديوانه ص١٠٧، ١٠٨.

○ ○ ○ ○ ○

أهجاء للقمر؟. أم إيّاك أعني واسمعي يا جارة؟!!

لا يختلف اثنان على أن ابن الرومي واسمه: أبو الحسن علي بن العباس بن جريج مولى بني العباس ولد عام ٢٢١هـ وتوفي عام ٢٨٢هـ، كان من أخبث شعراء الهجاء. ومن أقبحهم ألفاظاً. وأشدّهم بذاءة. وأكثرهم هجاء. ومع أن هذه هي سلوكياته في الشعر فإن شعره لا يخلو من الحكمة. وله التفاتات نقدية يلمح بها حيناً ويصرح بها أحياناً.

وربما وصف ابن الرومي بأنه عقربي الطبع. لأن هجاءه لا ينصب على من لا يتفق معه أو على من لا يجز له العطاء، أو ما إلى ذلك مما قد يكون ذا سبب تافه. بل يلسع أولئك وغيرهم.

أما هجاؤه للقمر فربما دخل في تفسير المثل (إيّاك أعني واسمعي يا جارة).

وإذا ما وصف الشعراء بالأشجار ذات الأشواك. فإن ابن الرومي كالعوسجة من بينهم.

والذي يقرأ ديوان ابن الرومي يجد أنه يسيء الأدب. ويحرص على حشد الألفاظ القبيحة في أهاجيه ولا يتوب عن قذف نساء من يهجوهم أو يهاجيهم. وعلى هذا فهو في نظر بعض النقاد يشكل مع أبي نواس وابن الحجاب أثافي المجون والشعر السخيف.

ونتبين من خلال قراءة أشعار ابن الرومي أنه لم يستطع السكوت والكف عن الهجاء يوماً من الأيام. لذا فإن الهجاء قد شكل جزءاً كبيراً من أشعاره. ومن عدم استطاعته على السكوت عن الهجاء. أنه يبحث عمن يهجوه. فإن لم يجد إنساناً بحث عن شيء في الطبيعة يصب عليه



جام هجائه.. لكنه وكما أسلفت لا يخلو شعره من طرح فكرة أو صياغة حكمة. روي أنه وقف في ليلة مقمرة فرفع رأسه إلى السماء وأرسل بصره إلى القمر ثم أطلق عنان لسانه في ذم القمر. فكان حصيلة الذم قصيدة بلغت ثمانية أبيات هي قوله:

رُبّ عُرض مُنزّه عن قبيح
دنسته مُعَرّضات الهجاء

وهذا البيت يفيض بالحكمة التي أشرت آنفاً إلى أن لها حضور في شعر ابن الرومي، وبعده يقول:

لو أراد الأديب أن يهجو البد
ر رماه بالخطة الشنعاء

قال يا بدر أنت تغدر بالسا
ري وتزري بزورة الحسناء

كلفٌ في شحوب وجهك يحكي
نُكتاً فوق وجنة برصاء

يعتريك المحامة ثم يُخَليّ
ك شبيه القلامة الحجناء

ويليك النقصان في آخر الشهـ
ـر فيمحوك من أديم السماء

ثم بعد ذلك يلتفت إلى موقف ذي الفضل من الشعراء ويظهر تخوفهم من الهجاء. وأنهم إنما يجزلون العطايا والحبات للشعراء. لا من أجل ما يمتدحونهم به من شعر. وإنما من الخوف من الهجاء. وهذه الالتفاتة وقف بها ابن الرومي على واقع الشعراء مع ممدوحيهم:

فإذا البدر نيل بالهجو هل يأ
من ذو الفضل ألسن الشعراء؟

لا لأجل المديح بل خيفة الهجر
و أخذنا جوائز الخلفاء

ㅇ ㅇ ㅇ ㅇ ㅇ

الإبداع في الإيجازة في الشعر

وكتب تراثنا الأدبي مليئة بفنون طرائف الأدب.. بل إنها كانت عنواناً نستدل به على أسلاف لنا كانوا حداة قافلة محملة بما لذ وطاب من الغذاء الفكري والروحي. وكانوا لا يستصغرون أمر كل شيء له سمة أدبية. بل ينظمونه في مسيرة تلك القافلة التي تركوها إرثاً ثميناً نفاخر به الأمم.

ولعل الشعر من أهم ما حملته قافلة حياتهم حيث وجدنا كمّاً هائلاً من الدواوين التي أفرغوا فيها تجاربهم في الحياة سواء منها ما كان في مجال الجد الذي يعجب بلغته وصناعته. أو ما كان منها في مجال السخرية والهزء والمداعبة التي فيها من المتعة الذهنية ما قد يشد العزم على التقاطه وجمعه في كتيبات. أو قل في كتب ذات عنوانات تترجم ما يقع الاختيار على استخلاصه. بل استخراجه من الأوعية التي حملتها إلينا تلك القافلة الميمونة.

ومن الصور الأدبية الرائعة التي حملتها لنا دواوين الشعر ما قرأته في كتاب «زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر» لمؤلفه أبي بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي المولود عام ٥٦١هـ والمتوفى عام ٥٩٨هـ والذي قال: ماشيتُ الوزير الكاتب أبا محمد بن حامد يوماً. فاتفق أن قال لأمر تذكره:

بين الكثيب ومَنْبت السدر
ريمٌ غدا مثواه في صدري

فقلت أجيزه:



لِوِشاحِهِ قَلْمٌ بلا أَلَمِ
ولقرطهً خَفْقٌ بلا ذُعْرِ

لو كنت قد أنصفتُ مُقْلَته
بَرّأتُ هاروتاً من السحر

أو كنت أقضي حق مرشفه
أعرضتُ لا ورعاً عن الخمر

وناولته يوماً وردة مغلفة فقال:

ومُحْمَرَّةٍ تختال في ثوب سندس
كوجنة محبوب أطل عذاره

فقلتُ أجيزه:

كتطريف كف قد أحاط بنانه
بقلب محب ليس يخبُو أواره

وقال: رآني الوزير أبو إسحاق وأنا أقيد أشعاراً من ظهر دفتر. فقال:

«ماذا الذي يكتب الوزير»؟
فقلت: بدائع مالها نظير

فقال: در ولكنه نظيم
من خير أسلاكه السطور

فقلت: من أظهر الكتب أقتنيها
وخلّ ما تحتوي البحور

وبعد: فأنا لا أشك في أن في أدبنا المعاصر شيئاً من هذا النوع. ولكنه يريد مؤلفاً يعرف مصادره ويجيد استخراجه ويعرف كيف يبعثه من مرقده.

أعجاز أبيات على طريقة الضرب في الرياضيات

أنشأ الشاعر تميم بن المعز لدين الله الفاطمي المولود عام ٣٣٧هـ والمتوفى عام ٣٧٥هـ أبياتاً غزلية هي غاية في العذوبة والرقة. بل إن غزليات تميم في جملتها تقطر بحلاوة الشعر.

ومما وقفت عنده من قصائده الغزلية التي يتلاعب فيها بالألفاظ المثيرة ويحشد فيها المفردات الجميلة التي تشبه قطع الحلوى للذائق وحبات اللؤلؤ للناظر قصيدة أوحت لي أعجاز بعض أبياتها بعنوان هذا الموضوع. والتي مطلعها:

تمتع بالمسرة والشباب
فقد برز الربيع من الحجاب

ولم تتجاوز أبياتها أربعة عشر بيتاً سلك في صياغة أعجاز بعض أبياتها مسلك أهل الحساب. كما أسلفت في العنوان. وذلك بضرب الأرقام بعضها ببعض.

فبعد مطلعها. قال:

فحبك والزمان وأنت فيه
شباب في شباب في شباب

ثم يشبه الريق بالخمر فيقول:

يدير بريقه ويديه خمراً
شراب في شراب في شراب

ثم بعد أن وصف لون بشرة يدي محبوبته ولون وجنتيها قال:





يـــداه ثـــم وجـــنـــتـــه وقـــلـــبـــي

شـهـاب فـي شـهـاب فـي شـهـاب

ويَسْفَهُ العذال في عذلهم فيقول:

عــداوتــهــم وعــذلُــهُــمُ جــمــيــعــاً

ســـراب فـــي ســـراب فـــي ســـراب

ثم يعود إلى وصف الدنيا التي يطالب بالتمتع بها في مطلع قصيدته. فيقول:

بــنــفــســجــهــا ونــرجــســهــا وورْدٌ

خـضـاب فـي خـضـاب فـي خـضـاب

وفي ذلك الجو الممتع يصف ما هو عليه من حال يرى أنها من ممتعاته:

فـــابـــريـــقـــي وكـــأســـي والـــغـــوادي

ســحــاب فــي ســحــاب فــي ســحــاب

ثم يختم القصيدة بقوله بأن هذا الجو الربيعي الذي دعي إلى النزهة قد اشترك في إيجاد أنسه ثلاثة أشياء هي قوله:

فــرأيــك ثــم شــربــك والــغــوانــي

صــواب فــي صــواب فــي صــواب

هذا بالطبع رأي خاص بالشاعر تميم ومن ينهج نهجه. وهناك من يخالفه وللناس فيما يعشقون مذاهب.

○○○○○

نعوذ بالله ممن هذه صفاتها!!

من يُرزق زوجة مطيعة، اكتملت فيها عناصر الأنوثة. وعرفت حق زوجها تمام المعرفة. لا يرى نفسه إلّا في جنة الدنيا، ولا يصدق أن أحداً يعيش في نار توقدها عليه زوجة لا تعرف من واجبات الزوجية. وحقوقها المفروضة عليها حقاً واحداً.

وأن من يبلى بزوجة لا تعرف كيف تُرضيه إذا غضب. ولا تدخل على نفسه السرور بابتسامة تمسح بها ما يعلق بوجهه من غبار من الكد في طلب ما يعيشها، لا يصدق أبداً أن أحداً يعيش حياة ربيعية لا تُملّ رؤيتها ولا الاستمتاع بشم أريج رَوْحها وريحانها.

وإذا كان كل من الرجلين لا يصدق بوجود ضد لما هو فيه من حياة زوجية. وأنه يقيس حياة الناس من حوله على ما هو عليه من حال. فإن هذا يخالف بعض ما نقرؤه من بوح يقرر بالواقع وبالتصور وجود تضاد قائم على فروق ذات بون شاسع بين النساء.

وأمامي وأنا أكتب هذا الموضوع أبيات من الشعر للشاعر محمد علي شعبان عسيري، وفيها رسم صورة لزوجة تشكل بهيئتها وصفاتها وتصرفاتها جميع ما ينطوي عليه معنى البلوى التي يبتلى بها بعض الرجال من زوجاتهم.

من تلك الأبيات قوله على لسان من قد ابتلي بجحيم من لا تعرف أبسط مبادئ الحياة الزوجية عليها:

ولدتُ عزيزاً ما عرفتُ غضاضة
من العيش أو طعماً للون التذلل



إلى أن قضى رب العباد بأن أرى
عريساً به بؤس كثير التعلل
تزوجتُ أبغي راحة وسعادة
فأصبحتُ مخبولاً قليل التعقل

وبعد أن وصف الصدمة التي لقيها مباشرة من لحظة انتقاله من العزوبية إلى الحياة الزوجية راح يصف بعضاً من طباع تلك الزوجة التي فوجئ بجحيمها:

تعدُّ طعام اليوم بالأمس رغبة
بوقت فراغ ينتهي دون مُشغل
فلا يؤكل مأكول لطول انتظاره
ولا الشرب مشروب على بعد منهل
إلى السوق أحياناً وفي الحفل تارة
ومثل لذا يُقضي لجارات منزل
لها صرخة تجتاح قلبي لأنني
أحاول إصلاحاً لها بالتحول

ومثل هذه الزوجة تجعل زوجها يتمنى أنه لم يتزوج، لأنه رأى في زواجه منها. مهانة وذلة وقيداً:

وغلطة عمري في زواجي وليتني
بقيتُ من العزاب حر التنقل

فنعوذ بالله ممن هذه صفاتها. ونسأل الله السلامة منها. ودعاؤنا أن لا يكثر الله من نوعها في مجتمعنا المسلم.

ونسأل الله أن لا يكون هناك عانس بسبب هذه الصفات. ولا أعزب. فضل العزوبة خوفاً من تلك السلاطة والبذاءة.

وتبقى الإشارة إلى أن الأبيات أطول من ذلك. وأنها قد نشرت في ملحق الأربعاء بجريدة المدينة ٧ ربيع الأول عام ١٤١٩هـ.

الرد القاهر على النقد الساخر

والنقد بمفهومه الأدبي يعدُّ جزءاً من الحياة الأدبية. ومحوراً تقوم عليه الأعمال الأدبية.. ولولا وجود النقد لتجرأ على الأدب من ليس بأهل له.. ولولا وجود النقد لتجاوز بعض ممتهني الأدب الحدود والقواعد السلوكية والأخلاقية فيما يكتبون ويقولون.. ولولا وجود النقد أيضاً لكثر العتب بالمفاهيم اللغوية. والخروج على المعاني وعلى مالها من مدلولات واسعة. ومجازات استثنائية محدودة. وصار كل من يحمل القلم كاتباً بارعاً وزعم كل من يقول الشعر أنه شاعر زمانه. لكنه إذا ما ذكر أن قلم الناقد سيتعقّبه. فإنه يحسب لذلك حساباً.. أما إذا لم يكن الناقد مؤهلاً. وليس بمدرك لواقع المهارات التي تبطن الاستعارات والمجازات الذكية في عبارات ساحرة يجيد صنعها صاحب العمل المنقود. فإنه سيصبح منقوداً بدلاً من كونه ناقداً. ويصير زمام النقد في غير يده. ومُتّخذاً ضده.

ومن الصور التي يحبط فيها الناقد لضعف إدراكه لخلفيات المعاني والاستعارات ومجازات الألفاظ التي يبدع في صياغتها الأديب الماهر والشاعر المتمكن والخطيب المفوه. هذه الصورة التي جرت بين أبي تمام وشخص أراد أن ينقده في قوله:

لا تسقني ماء الملام فإنني
صب قد استعذبتُ ماء بكائي

فأرسل إليه غلامه ومعه إناء إلى أبي تمام. وقال للغلام: قل لأبي تمام يقول لك سيدي: املأ لنا هذا الإناء من (ماء الملام) فأدرك أبو تمام هذا النقد الساخر من جاهل لا يدري ولا يدرك لنا للاستعارات



من مفاهيم وخلفيات تخفى على من ليس له حس شعري وذوق أدبي فأعطىٰ الغلام سلة وقال له: أقرء سيدك السلام وقل له يملأ لنا هذه السلة من «جناح الذل». وكان أبو تمام يقصد بذلك الإشارة إلى قوله تعالى في سورة الإسراء آية ٢٤: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

وتجدر الإشارة إلى أن البيت السالف الذكر هو من قصيدة كان أبو تمام قد مدح بها يحيى بن ثابت. ومطلعها:

قَـدْكَ اتّـئِـبْ أربيـتَ فـي الـغـلـواء
لـم تـعـذلـون وأنـتـم سُـجَـرائـي

ومعنى: قَدْكَ: حسبك، واتّئبْ: استحي، والسّجَراء: الأصدقاء، ومنها قوله يصف الخمر:

راح إذا مـا الـراح كُـنّ مَـطِـيّـهـا
كـانـت مطايا الشوق في الأحشاء
عـنـبـيّـةٌ ذهـبـيـةٌ سَـبَـكـتْ لـهـا
ذَهَـبَ الـمـعـانـي صـاغـةُ الـشـعـراء
صَعُبتْ وراض المزجُ سيّئَ خُلْقِها
فـتـعـلّـمـتْ مـن حُسْنِ خُلْق الـماء
خـرقـاء يـلـعـبُ بـالـعـقـول حَبَابُـهـا
كـتـلَـعُّـب الأفـعـال بـالأسـمـاء

ومن امتداحه ليحيى بن ثابت قوله منها:

يـا غـايـة الأدبـاء والـظـرفـاء بـل
يـا سـيـد الـشـعـراء والـخـطـبـاء
يـحـيـى بـن ثـابتٍ الـذي سن الـنّـدى
وحـوى الـمـكـارم من حـيـاً وحـيـاء

أهذا حل لمشكلة اجتماعية؟ أم هو هجاء شخصي؟!

صنع أبو إسحاق إبراهيم بن عباس بن محمد بن صول المولود عام ١٧٦هـ والمتوفى عام ٢٤٧هـ أبياتاً رسم فيها صورة رجل لا يفيد ولا يستفيد. ولا ينفع ولا يضر. ومَثّلَهُ في هيئة هي غاية في السلبية والسذاجة والخمول. وجعله لا يعرف أي نوع من أساليب المجازاة والمكافأة. وذلك بقوله:

ولما رأيتك لا فاسقاً
تُهاب ولا أنت بالزاهد

وليس عدوك بالمتقي
وليس صديقك بالحامد

أتيتُ بك السوق سوق الرقيق
فناديت هل فيك من زائد

لكن أبا إسحاق بعد أن عرض صاحبه للبيع في سوق الرقيق لم ير أحداً مقبلاً على شرائه. فأظهر الحقيقة. ونفى عنه السلبية والخمول والسذاجة التي أثبتها في بادئ الأمر. ووصفه بالغدر بالصديق. وهو ينادي على بيعه بقوله:

على رجل غادر بالصديق
كفور لنعمائه جاحد

وعلى رأي المثل القائل: «لكل ساقط لاقط» جاءه من كتب عليه الشقاء واستجيبت دعوة والده عليه:



فــمـــا جـــاءنـــي رجـــل واحـــد
يـــزيـــد عـــلـــى درهـــم واحـــد

ســوى رجـل حـــان مـنــه الـشـقــاء
وحـــلّـــت بـــه دعـــوة الـــوالـــد

بقي أن تعرف هل أبو إسحاق أراد أن يترجم صورة لا يخلو منها مجتمعه من حيث نكران الجميل من ناحية وكحل يحمل على اختفائها من ناحية أخرى؟ أم أنه قد عين شخصاً بذاته. واستهدفه للسخرية والهجاء.

الغالب على الظن أنه كان يعني صديقاً تنكر عليه. وهو محمد عبد الملك الزيات الذي ولي الوزارة وأخذ في إيذاء أبي إسحاق حيث عزله من ولاية الأهواز أيام الواثق، واعتقله.

فأخذ أبو إسحاق يستعطفه بالنثر والشعر. ولمّا لم يَجِدْ هذا الأسلوب قبولاً من لدن الزيات. ما كان من أبي إسحاق إلّا أن قلب له ظهر المجن كما يقولون. فبدأ في هجائه بالتصريح حيناً وبالتلميح حيناً آخر.

ولعل الأبيات الآنفة الذكر من تلميحاته. بل إنني أرجح ذلك. لأنه ورد فيها نص «الصديق».

والحقيقة أنه ما من شيء أثقل على النفس من تنكر الصديق لصديقه واستبداله بغيره حينما ترقى به يد الحظ إلى الرتب العالية، وتمكنه الأقدار من القدرة على إهانة صديقه القديم بالصفة التي عامل بها الزيات صديقه أبي إسحاق.. فآه لمن تطغيه المناصب فيتغير على الصديق والصاحب.

○ ○ ○ ○ ○

من إطلالات الشعراء على سقطات الرذلاء!

يقول الشاعر في كثير من الأحيان على معالجة قضايا ومشكلات مجتمعه بما يشبه دور الطبيب في علاج المرضى، بل إن شعره لا يقل في تأثيره عما يصفه الطبيب من مراهم تبرئ الجروح وتخفف الآلام.

وإن شئت فالشاعر في كثير من الأحيان يكون واعظاً ومرشداً يدل على الخير ويحذر من الشر.

.. وإننا لنجد كثيراً من الشعراء قد نذر نفسه ووظف جميع شعره لوصف ما يصلح به مجتمعه.

فتراه إذا ما رأى بعينه عادة سيئة، أو سلوكاً ينافي الاستقامة نقله في صورة شعرية وبثها بسحر بيانه فيما يشبه التعميم التحذيري من الوقوع في سيئ العادات وممارسة قبيح الأفعال.

والحقيقة أنه كم من شاعر أطل على سقطات يوصف أهلها بالرذلاء فأجاد في نقل صورة حالهم إجادة لا تحتاج معها إلى مزيد من كشف الرذيلة وحالة الرذلاء.

.. ومن القصائد التي أطل بها شعراؤها على ما لا يحمد من سلوكيات. قصيدة للشاعر المعاصر محمد إسماعيل جوهري، والتي أقتطف منها هنا ما فيه الدليل القاطع على أن للشعراء إطلالات على سقطات الرذلاء، وذلك مثل قوله وهو يصف من غرق في اللهو والمجون فترة من عمره أضاع فيها حقوق بيته وما لزوجته وأبنائه عليه من التزامات قد فرضها الله عليه:



وبعض الناس كم يغفل
يباهي بالذي يفعل

يقضي ليله سمراً
بلهو ماجن أرذل

ويمضي عمره نزقاً
بساح اللهو لا يخجل

وفي أعماقه شبق
كثير السقط مايَملل

يضيع العمر في لعب
وفي لغو.. أما يعقل

مضى يلهو بغانية
يغر بعيشها المُرقل

فهل دامت لمن سبقوا؟
ألم تلقيهمو عزل

فيعشى لا يرى شيئاً
سوى لذاتها معقل

والقصيدة طويلة فهي تبلغ نحواً من ٤٢ بيتاً. أفاض فيها، وجعل لذلك المهمل اللاهي التفاتة استيقظ فيها من مجونه، وعاد بعقله ورشده إلى بيته وزوجته وصار في أحسن حال بعد ما كان في أرذل حال، وأسوأ خلق.

○○○○○

جدوى التلطف في إثارة قريحة الشاعر!

ومثل ما أن من الشعراء من يكون سكوته أفضل من كلامه وشعره، فإن منهم من يكون شعره أفضل من سكوته. وهذا الأخير يكون لاسمه حضور عند الحديث عن الشعر والشعراء بل إن سكوته يُعدُّ في مجال الأدب كتوقف النهر المتدفق عن الزراعة.

ولهذا فإن توقفه عن صناعة الشعر الذي يفيد حكمة،ويصف حل مشكلة، ويتضمن توصيات نافعة، وإرشادات قيمة، يعد خسارة يصعب تعوضها.

وحَثُّ الشاعِرِ على مواصلة نشاطه في طرح القضايا الاجتماعية بأسلوب شعري يجب أن يكون مُتّسِماً باللطافة، وبشيء من العبارات المهذبة التي تثير قريحته وتستدر شاعريته، حتى يجود بفكره، ويتنمق في طرح رأيه.

ومثل هذا الأسلوب، قد حصل من فتيات حاولن إثارة قريحة الشاعر محمد بن سعد المشعان،الذي وطَّأ لإحدى قصائده المنشورة في زاوية: «غرابيل» من جريدة الرياض في عددها ١٠٩٣٤ الصادر يوم الاثنين ٧ صفر عام ١٤١٩هـ بقوله: تسلمت رسالة من خمس فتيات من: هند، ونورة، وهناء، وهدى، ونوف ـ وقد نابت عنهن نوف في الحديث مفيدة بأنّهنّ ـ قررن إصدار مجلة ثقافية تربوية اجتماعية.

وتريد نوف منّي أن أكتب في هذه المجلة المقترح إصدارها وفي زاوية منها أسمتها نوف «حديث الشيوخ». هذا هو ملخص ما حوته رسالتها هي وأخواتها.. والجواب هو الآتي نظماً:



تـريـديـن يـا بـنـتـي حـديـثـاً مـنـمـقـاً
عن الزمن الماضي وما أعجب الزمن
تريدين أن أحكي وقد كلّ ناظري
وضاعف شكّي بعض فأتسمع الأذن
عفا اللّه عما كان يا ـ نوف ـ شاطحاً
وما كان في سريّ وما كان في العلن
فإن كنتِ تبغين الحديث عن الذي
يسجله التاريخ عن أعصر الفتن
وعـن أعـصـر الأعـراب لا درّ درّهـم
وعصر أبي زيد ـ وعصر ابن ذي يزن ـ
فقومي إلى التاريخ ينبيك سفره
عن الشام في الماضي وينبي عن اليمن
وإن كنتِ تبغين الذي سجلت يدي
فذاك طغت فيه المياه على اللبن
وأوثـقـنـي كـسـبـي إلـى مـا رأيـتـه
سجين ـ غرابيل ـ يقاد بلا رسن

وسواء كانت الرسالة حقيقية أو هي من شبح الخيال الذي بَرّرَ صنع هذه الأبيات بهذا الأسلوب، فإن مداعبة الشاعر للواقع أو لما ينصبه خياله تصبح أدباً يأخذ مكانه من الصفحات الأدبية الخاصة بأدب عصرنا.

○○○○○

بعض صفات نوادر القصائد!!

يزرع بعض الشعراء المرموقين في جسد قصيدته أحياناً ما يشبه قرني الاستشعار حتى إنه ليخيل لقارئها أنها تسير وفق أحاسيس معينة تخضع لما لا يتنافى مع ما تتجه إليه مشاعره، وذلك بفضل ما تمتلكه بقرنيها الوهميين من حاسة لا تحيد بسببها عن الاتجاه المرغوب فيه، ولا تضعها في تداخلات لا تكون لها عثرة عند الوقوف على نقطة النهاية.

.. ومثل هذه القصيدة التي يجوز لنا أن نصفها ـ بالمبصرة ـ لا توجد عند كل شاعر، ولهذا عدّها النقاد ومؤرخو الأدب من النوادر والفرائد التي يقل شبيهها عند السواد الأعظم من الشعراء لأن صناعتها بالطريقة التي أشرت إليها آنفاً تحتاج إلى تخصص معين، ومهارة فائقة في الشعر.. ولهذا فهي تعدّ عند كثير من الشعراء من المستحيلات، حتى وإن كانوا على جانب كبير من التميز في صناعة الشعر الذي زخرت به الدواوين بالمكتبات بأعذب العناوين.

والشاعر السعودي المعاصر محمد حسن فقي يعد في عصرنا هذا واحداً من الشعراء القلة الذي يصنعون القصائد المبصرة، إذ له حتى الآن أكثر من قصيدة تعد بحق من نوادر القصائد.

.. وإذا كان لكل شاعر من شعراء النوادر سمة أو طابع يتميز به عمن سواه من الشعراء فإن الشاعر محمد حسن فقي قد وسم قصائده، وبخاصة العصماوات منها بوسم يمتلك به القصيدة. فتعرف به كقصيدة،ويعرف بها كشاعر.



وبعض أسرار فرائده الشعرية يتمثل في التحليق بها في أجواء واقع الفلسفة وفلسفة الواقع بأسلوب يمتزج بحكمة القول، وقول الحكمة، ولعل قصيدته «كرامة.. وصَغار» التي نشرتها جريدة المدينة في عددها ١٢٧٨٥ يوم الثلاثاء ٢٤ ذي الحجة ١٤١٨هـ واحدة من قصائده ذات الاستشعار والتي خاطب نفسه فيها مخاطبة فلسفية صادقة، يقول في مطلعها:

تطلعتُ من كهفي إلى النور أرتجي
مكاناً لنفسي فيه مثْلَ صحابي

فأبصرتهم في فرحة يرمُقونني
بعين سؤال لا بعين جواب

ومنها يقول:

وعدتُ لنفسي بعد طولِ رويَّة
أسائلها في حيرة وعُجاب

أعشتُ أنا يا نفس من قبلُ هانئاً
بشيخوختي، أو في ربيع شبابي

أبيني فهل كان الهناء بمشهدي
إذ صح ما قالوه، أم بغيابي

ومنها قوله:

سئمتُ.. فلو عاد الزمان مُسالماً
إليّ لما عادت إليّ رغائبي

ويختتم أبياتها التي بلغت ٣٦ بيتاً بقوله:

وإني لتُطربني الجهالةُ عندما
تحاول تدنيس العلا بسبابي

ويُسعدني هذا الصَّغار لأنه
يطالعني من تافهين غِضَابِ

الأحدب في مثل عامي وشعر فصيح!!

وأمثال عامة الناس ليست في مفهومها وما تعنيه من موافقات ومطابقات للواقع بأقل من أمثال الفصحاء، لأنها قد جاءت جميعها وليدة تجارب كل من الفئتين.

.. يحكى أن أحدباً مَرَّ بشخصين فقال أحدهما للآخر: تُرى هل يستريح هذا الأحدب في نومه؟ فردّ عليه صاحبه: لا تحمل هماً ـ فالأحدب يعرف كيف ينام ـ فأطلقه مثلاً يردُّ به على من يزعم أنه لا يستطيع أن يؤدي غرضاً يطلب منه، أي أن كلاً يستطيع التعامل مع ما يخدم مصلحته بالطريقة والأسلوب الذي لا يُحَمِّلُه من الجهد ما لا يطيق احتماله.

هذا من ناحية تعامل الأحدب مع الحياة العملية وتكيفه مع ظروفها.

ومن ناحية أخرى فإن الوقوف على المعاناة النفسية التي تسببها الحدبة للأحدب من جراء نظرات الناس إليه والمصَوَّبة إلى هيئته يظهر مشكلة تضايقه وتسبب له ما يستعصي التغلب عليه، إذ ليس لها حل سوى تجاهل النظرات التي تلاحقه وترتكز على حدبته أينما اتجه.

وإزاء هذه المشكلة كان لبعض الشعراء وقفات هي أشبه ما تكون بالعلاج النفسي للأحدب، حيث نجد بعضهم قد امتدح الحدب وجاء بمناقب له فيها تسلية من ناحية، وعدة يجالد بها من يجرأ على تعييره بالحدب من ناحية أخرى.

ومن الشعراء الذين جعلوا من الحدب صفة حسنة، الشاعر ابن



المنجم حيث وصف حدبة ابن حصينة المعري بألطف الأوصاف، في قصيدة منها قوله:

زعموا أنني نظمتُ هجاءً
معرباً فيك عن شنيع المقال

كذبوا إنما وصفت الذي حز
ت من الفضل والبها والكمال

لا تظنّنّ حَدْبَةَ الظهر عيباً
وهي في الحسن من صفات الهلال

وكذاك القسيُّ محدودباتٌ
وهي أنكى من الظُّبا والعوالي

وإذا ما علا السنام ففيه
لقروم الجمال أيُّ جمال

وأرى الانحناء في منسر البا
زيّ لم يَعْدُ مخلب الرئبال

كوّن اللّه حدبةً فيك إن شئـ
ـت من الفضل أو من الأفضال

فأتت ربوة على طود علم
وأتت موجة ببحر نوال

فانظر أخي القارئ كيف جعل الشاعر من المنظر المستهجن شيئاً مستحسناً، وجعل مما هو قبيح مذمم شيئاً جميلاً ممتدحاً.

○ ○ ○ ○ ○

الشرنوبي وذوقه الفني باصطحاب ـ إن ـ

تمتزج الفلسفة مع واقع الفكر عند كثير من الأدباء وأهل الفكر وبخاصة الشعراء منهم فيحصل منه البوح بما في داخل النفس من أمور ذات معانٍ تأبى ألّا تكون في قوالب شعرية يمتزج فيها الوضوح بعنصر الرمزية لتكوّن وحدة ملونة اللغة والمعنى. حتى إذا ما قراؤها مختلفو الثقافة حصل لكل منهم فهماً مغايراً لفهم الآخر دون أن يتهم أي منهم الآخر بالتقصير في إدراكه للوجه الذي قرأه به.

ومزج الفلسفة في رسم صور بعض الخواطر الشعرية يعد من مميزات الشاعر ومن رموز مقدرته الشعرية، ومن أدواته التي تجعل من أشعاره مادةً مغرقةً في إظهار جمال الصورة الأدبية التي يكثر عشاقها من متذوقي الأدب الذين يرحلون بأحاسيسهم مع موسيقى الشعر العذب وأنغامه الشجية.

.. والشرنوبي صاحب عنوان هذا الموضوع، هو صالح علي الشرنوبي شاعر مصري ولد عام ١٩٢٤م وتوفي عام ١٩٥١م بعد أن أصيب بالجنون في آخر حياته وعاش في مستشفى الأمراض العقلية بالقاهرة، له شعر يظهر عليه التكيف مع المناسبة التي توحي إليه بصناعة القصيدة.

ومن قصائد الشرنوبي التي كان له فيها صحبة مع حرف ـ إنْ ـ قصيدته التي جعل عنوانها ـ الذكرى ـ وبلغ بها ٣٧ بيتاً، قال في مطلعها:

أفي القمة السكرى بخمر الأداهر
تعيشين؟ أم في فكرتي وخواطري



وابتدأ عدداً متواليةً من أبياتها بـ«إنْ» حيث قال:

إذا همتُ في الشطآن أنشد سلوة
لدى الموج رد الموج ضحكة ساخر

وإن غنت الأمواج خِلتُ غناءها
أنين اليتامى أو نشيج الحرائر

وإن ومضت أصدافها كان ومضها
لظى جمرة حمراءَ تغلي بناظري

وإن مرّت الأنسام تهفو حسبتها
من المس أنفاساً بجوف المشاعر

وإن أرعشت جفنيَّ تهويمة الكرى
تراءَيتُ جرحاً ساهداً في محاجري

وإن ذُهِلَت عني تهاويل شقوتي
تحايلت حتى لا أُفيق لسامري

وإن راودت قلبي الأماني تمثلت
له مديةً خرقاءَ في كف جازر

○○○○○

جنون الشرنوبي أملى عليه منح جائزة للمجانين!

وإذ ما اختل عقل شخص كان مبدعاً في فن من فنون المعرفة فإن جنونه لا يخلو من الإبداع أيضاً بأي شكل من الأشكال التي نلمس فيها إبداعه الجنوني الذي يأتي على هيئة طرفة وفكاهة يتلقفها الحذاق من صنّاع الفكاهة، وأصحاب النوادر، فيخرجونها في أسلوب هو غاية في عرضها.

والمسؤولون عن مصحات المجانين يذكرون هذه الظاهرة عند المجانين الذين كانوا مبدعين في تخصصاتهم قبل جنونهم. وربما كان لهم مع هذا النوع من المجانين مواقف فيها من الطرافة ما يؤهلها بأن تكون نادرة يستمتع بسماعها، وتأخذ مكانها من الأدب الضاحك.

.. والشاعر المصري صالح علي الشرنوبي المولود في بلدة بلطيم عام ١٩٢٤م كان لحياته قصة طويلة متميزة لخصها الدكتور عبد الحي دياب في عدة صفحات من «ديوان صالح الشرنوبي» كانت نهاية القصة، إن الشاعر صالح الشرنوبي أصيب بالجنون فأدخل مستشفى الأمراض العقلية، فكان له مع زملائه المجانين حكايات كلها طرافة، رواها عبد العليم خطاب بهذا النص:

تبرع صالح الشرنوبي وهو في مستشفى الأمراض العقلية بجائزة لمن يمر من تحت خط رسمه لهم من أول الحجرة إلى آخرها، وجلس ينظر إلى المرضى وهم يضربون الأرض برؤوسهم محاولين المرور من تحت الخط حتى سالت دماء وجوههم وهاماتهم.

وحينئذ دخل الدكتور فوجدهم على هذه الحالة إلّا الشرنوبي،



فسأله عن السر في ذلك فحكى له القصة، وأنه إنما صنع ذلك لكي يبعدوا عن مضايقته.

قلتُ: ما كأنه قبل هذا قال قصيدته «المجنون» التي وطأ لها بقوله: رأيته يمشي مهلهل الثياب ملتاث الخطا. وفي كفه قارعة من حديد يقرع بها نفسه. والأطفال يحصبون رأسه صائحين ـ المجنون ـ وهو يرسل بصره في السماء والأرض صائحاً عطشان.. عطشان، وهذا هو نص القصيدة:

نسميه مجنوناً فنحصب رأسه
وفي رأسه ثارت عواصف من عقل
تنوح فتصليه لظى من نواحها
فيشرد ملتاث الخطا كبني النمل
يخال سراياً سائلاً من سمائه
وما في سماء الأرض شيء سوى المحل
وينظر أرض الناس وهي جديبةٌ
فيحسب أرض الناس وبلاً من الوبل
فيهذي بألحان تمزّق شملها
وليس لها في آخر العمر من وصل
فيا ليت هذي الناس جن جنونهم
فكانوا عن الرقطاء والسم في شغل
وذاقوا طعام الساخرين بعيشهم
فغضوا عن الأضواء ضائقة القفل
ولكنهم جنوا بطين مرقّش
فصانوه عن نار الحياة التي تغلي

السباحة في اليقين.. والغرق في الشك!!

نلاحظ من خلال أشعار بعض الشعراء أن الإيمان بالحياة والموت، يقوى في بعض ما يصنعونه من قصائد، ويضعف في بعضها ضعفاً نستطيع أن نحكم عليه بأنه كان ضحية للشك.

.. والشاعر الذي يسبح في اليقين تارة، ويغرق في الشك أخرى قد يعطي صورة انطباعية عن حياته لمن يقرأ أشعاره بعد مماته فيصبح بين ناقدين أحدهما ينظر إلى جودة سباحته في اليقين فيحشد من الأدلة على ذلك مما في قصائده اليقينية البعيدة عن الأوهام والشكوك في مسيرة الحياة والنقلة إلى الآخرة، حيث الحساب والثواب والعقاب، والجنة والنار.

أما الناقد الآخر والذي يكون أكثر تمحيصاً لأعمال الشاعر وذلك بتتبع ما كتب عن سيرة حياته كشاعر تتفرق به السبل حيناً وتجمعه حيناً آخر، فإنه بمقارنة روح الشاعر التي كان يسبح بها في اليقين حيناً، ويغرق بها في الشك حيناً آخر. يتساوى الأمر في نظره من خلال طبيعة صناعة القصائد الإيمانية، والقصائد التي أظهر فيها شكوكه. وعندئذ يكون الأمر صعباً، والتخلي عن الحكم مناسباً.

.. والشاعر المصري صالح علي الشرنوبي المولود عام ١٩٢٤م واحد من الشعراء الذين كان لهم نظرة ـ معرية ـ صفتها الشكوك في الحياة والوجود، ومن صور غرق الشرنوبي في الشك قوله من قصيدة له:

آه لــو أعــلــم مــا بــعــ

ـد فــنــاءِ الــمُــوجَــدِ



أهـــو بـــعـــثٌ رُهـــنـــت ســـا
عـــتُـــه بـــالـــمـــوعـــد

أم هـــو الـــوهـــم يُـــريـــ
ـنـي الـقـربَ كـالـمـسـتـبـعـد

آه لـــو أنـــي مـــا عُـــمِّـــ
ـرتُ أو لـــــم أُولـــــد

لكننا نقرأ له سباحة في اليقين تجعلنا نحكم عليه بأنه كان يعيش بين الوهم والحقيقة طول حياته التي كان عقله هو المسيطر على جميع أحاسيسه، فمن صور سباحته في اليقين قوله من قصيدة له ضمن قصائد روحانية ترجم فيها حياة إيمانية كلها صفاء روحي:

تـعـالـى الـلّـه، كـيـف يـكـون عـونـاً
لـمـاضٍ فـي الـغـوايـة مـسـتـبـدِّ

تـركـنـا الأمـر بـالـمـعـروف.. حـتـى
كـأن الأمـر بـالـمـعـروف مُـرْدِ

وهي قصيدة طويلة مكونة من خمسة مقاطع بلغت في مجموعها واحد وخمسون بيتاً، كلها ندم وتحسر على أفعال ذميمة.

ومن قصيدة أخرى يقول:

تباركت يا رب السماوات.. ها أنا
وها أنت.. في كل الوجود لك المجد

جرى ما جرى، فامح الغداة الذي جرى
إلٰهي.. أو أثبت، فإني لك العبد

والقصيدة التي منها هذان البيتان تبلغ ستين بيتاً.

مناقشة بعض أبيات قصيدة!

بعض القصائد تأخذ صفة معينة يتجه بها صاحبها اتجاهاً يجعل رأيه فيها هو المقدم، وذلك بأسلوب يحقق به صحة اتجاهه ومصداقية قوله، بلهجة قطعية بما يقول.

والقصيدة التي سنلقي عليها النظر الآن هي قصيدة للشاعر العباسي محمد بن حازم بن عمر الباهلي، وقد جمع أبياتها البالغة أَحَدَ عشر بيتاً أبو حيان التوحيدي.

منها:

ما الجود عن كثرة الأموال والنشب
ولا البلاغةُ في الإكثار بالخطب

هذا القول صحيح، ويتصف بالحكمة المتمخضة عن التجربة، فكم من جواد ليس بكثرة ماله. وكم من كثير مال ليس بجواد لانقباض كفه.

أما البلاغة فهي من عدة الخطباء والحكماء والمشتغلين بالكتابة والأدب وأصحاب الأقلام، وسرها الإيجاز في غير ما خلل بالمعنى.

ومنها:

ولا الشجاعة عن جسم ولا جلد
ولا الأمانة إرث عن أب فأب

وصدر هذا البيت موافق للرأي وللواقع لأن الشجاعة شجاعة القلب، وقد وصف بعضهم قلب الشجاع بأنه ـ أصمع ـ.



أما عجز البيت ففيما قاله فيه نظر، فالأمانة تورث وتكتسب أيضاً، بل هي مقياس للصدق وسمو الأخلاق، ودليل قاطع على قوة الإيمان وضعفه.

ومجمل التعليل فيما رآه في البيتين السابقين يدرجه في قوله:

لكنها همم أدّت إلى نُجح
في كل ذاك بطبع غير مكتسب

وبعد هذا البيت يواصل القول فيما لا مجال للمناقشة فيه فيقول:

والرزق عن قَدَرٍ يجري إلى أجل
بالعجز والكَيْسِ والتضييع والطلب

والناس فيما أرى عندي بأنفسهم
لا بالقبور ولا الأسلاف والنسب

إني وإن قل مالي لم تقف هممي
دون الجميل من الأخلاق والأدب

صبراً على الحق في مالٍ سمحتُ به
وللزمان على اللّأوا والكذب

يا صاحباً لم يدع لي فقده جلداً
ظُلمتُ بعدك إن الدهر ذو عقب

○○○○○

المجمع اللغوي وتعريب ـ التنورة ـ !!!

ما كنت متابعاً لما يتم تعريبه من قبل المجمع اللغوي العربي، وبالصدفة قرأت موضوعاً للأخ الأديب حمد عبد الله القاضي ألمح فيه إلماحة فيها من الظرافة ما يدعو إلى قراءتها.

يقول الأخ حمد القاضي: إن المجمع اللغوي قد عرب «التنورة» فسماها «قفة» قلتُ: «والتنورة» لباس نسائي شائع بشكله وتصميمه في عصرنا، وهي لفظة ليست عربية. فاجتهد المجمع اللغوي في تعريبها فأطلق عليها اسم «القفة» وعلينا أن نتصور، بهذه التسمية شكل القفة وهيئتها، وأعني القفة التي تصنع من الخوص لحمل الحوائج وربما استخدمها بعضهم لاصطياد الجراد خاصة في ناحيتنا في منطقة سدير. ثم نتصور بعد ذلك التنورة التي أصبحت قفة ذلك الملبوس النسائي، ونربط شكل قفة الخوص بقفة الملبوس لنجد صورتين متباعدتين يجمع بينهما اسم واحد قُسِرَتْ فيه التنورة قسراً أصبحت معه مدعاة لضحكِ الذين يعرفون قفة الخوص من حيث شكلها وطبيعة عملها الذي ذكرت صنعته آنفاً.

ولو أن هذا التعريب كائن في عصر أبي عبد الله محمد بن مسعود الذي قيل: إنه عاش في القرن الخامس الهجري، وأن زوجته قد طلبت إليه أن يأخذ القفة ويذهب إلى السوق ليجمع فيها حوائج أكدت على شرائها، لاختار في أيهما يأخذ قفة الخوص. أم تنورة زوجته بل ربما أشغلته عن صناعة قصيدته التي أحصى فيها ما طالبته زوجته بشرائه، والتي منها قوله:

وقالت خجولي سر إلى السوق واحتفل
ولا تبق فيها من جرادقها منا

وقف يا ابن نصر واحشونْ ثمَّ قفة
من أطراف ما يحويه كي تذهب الشحنا

وجز بالفتى الجزار واختره هابلاً
يقدّ ابن فتويّ أبي بكر المضنى

ولا بدّ من أترجةٍ صعترية
وإياك أن تنسى التوابل والحنا

فقلتُ وأين النقد يا ابنة عَزّة
لقد جِئتها بلقاء منتنةً نتنا

فقالت: أديبٌ شاعرٌ متفنن
حوى من حظوظ الظرف في زعمه الأسنى

بلا قطعة؟ هذي لعمرك هُجنةٌ
فسر راشداً عنا فمالك من معنى

لئن لم تجيء بالتين ألبستَ شيرةً
وبالزيت أضحى سجنك البيت والدنا

ويبقى أن أقول لماذا لا تبقى - التنورة - على اسمها الذي عرفت به، وأعربت مثلاً على وزن سبورة وعصفورة، ونافورة، أو اختير لها اسم يتواءم مع صفة اللباس.

أنا أظن أن إبقاء التسمية أفضل من اسم القفة.

○○○○○

عاشق لعروس من نوع آخر!!

والعشق ليس موقوفاً على جمال المرأة وحسنها، فهو لفظة تطلق على كل شيء يحبذه الإنسان ويهواه، ويسعد بلقائه ورؤياه. فهناك من يعشق المناظر الجميلة فتراه يديم النظر إليها وتمتلئ نفسه سروراً بالبقاء بين أحضانها، وهناك من يعشق الأنجم فتراه يظل طول ليله يرقبها ويسامرها وهي تتلألأ في صحن السماء، وهناك من يعشق البحر فتراه يطيل الوقوف على شاطئه تطربه أمواجه المزبدة، وما تكوّنه الريح على سطحه من زرد محدودبة، وهناك من يعشق الصحراء وما فيها من جبال منتصبة وأودية منخفضة، وأشجار مخضرة لا يلحق طَرْفُهُ مداها، ولا تمل عينه رؤياها فهو إلى البقاء فيها أميل من العيش بين الأزقة وخلف الأبواب المرتجة، وهناك من يعشق القراءة فتراه إذا لم يجد شيئاً يقرؤه فكأنما فقد شيئاً لا تتم حياته اليومية إلّا به، وهناك من تخصص في عشق القراءة إذ من الناس من لا يعشق إلا قراءة القصص، ومنهم من يعشق قراءة التاريخ والسير الذاتية، ومنهم من يتعشق قراءة الفلسفة والمسائل الجدلية، ومنهم من يعشق قراءة الشعر بل منهم من يعشق من الشعر الهجاء فقط ومنهم من لا يرغب إلّا قراءة المديح من الشعر، ومنهم من لا يروق له إلّا قراءة الغزل فترى كل واحد من قراء الشعر لا يقرأ منه إلّا الذي يناسب مزاجه ويشبع جوع عشقه.. ومنهم من يعشق قراءة الجرائد اليومية والمجلات وليس للكتاب من عشقه للقراءة حظ.

والذي أثار هذا الحديث، وهذه الالتفاتة إلى هذه الأنواع العشقية. هو ما قرأته من أبيات نشرتها المجلة العربية التي تصدر من الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية ويرأس تحريرها الأديب حمد

عبد الله القاضي، وهي - والمعنى بذلك الأبيات - لشاعر تونسي اسمه: رابح المجبري وفيها حدد عشقه في قراءة المجلة العربية التي سماها - عروس المجلات العربية - من تلك الأبيات قوله:

مجلتنا من قديم الزمان
حبيبة تونس والقيروان

تعطرنا بجميل الكلام
وتعبق بالضوء في كل آن

يصافحنا وجهها كل شهر
سلام وحب وفيض حنان

وإن غابت الشمس عنا تغيب
نظل يتامى بدون أمان

ونفرح يوم تزف إلينا
عروساً على عرش كل الحسان

أحبها لا أعرف الآن كيف
أقول مشاعر دون امتنان

تربيت في دوحها منذ عشر
سنين خلت هي من قد رعان

وهي الآن أبهى هي الآن أشهى
من الشهد والورد والأقحوان

والحقيقة أن عشق المجبري كان عشقاً من نوع متسام وكان عشقاً يترجم ذوقاً أدبياً إذ أن المجلة العربية بحق من أفضل المجلات في منهجها الأدبي والعلمي والثقافي والفكري، فهي معين صاف، أنصح بالارتشاف منه فهو يبرد غليل طالب الثقافة والأدب.

سعيد بن حميد

يتمنى أن لا يموتَ قبلها ولا بعدها!!

وسعيد بن حميد هو: أبو عثمان سعيد بن حميد بن سعيد بن حميد بن بحر الكاتب من أولاد الدهاقين، وأصله من النهروان الأوسط، وكان يدعي الولاء في بني سامة بن لؤي كما كان يدعي أنه من أولاد ملوك الفرس ولد ببغداد في السنوات الأخيرة من القرن الثالث الهجري وقدر أنه عاش خمسين سنة وعلى هذا فهو من شعراء النصف الأول من القرن الرابع الهجري، له ديوان مطبوع بمطبعة الإرشاد ببغداد سنة ١٩٧١م قام بجمعه يونس أحمد السامرائي.

وقد كانت للشاعر سعيد بن حميد وقفة شعرية بديعة في غرضها وهدفها وأسلوبها وحسن سبكها، ولعله من الشعراء الذين انفردوا بمثل ما فيها من خاطرة تجلت فيها أمانيه بأن لا تموت محبوبته قبله وأن لا يموت قبلها لما يرى في ذلك من حزن سيصيب المتأخر منهما على المتقدم، وكانت أمنيته أن يموتا معاً في لحظة واحدة، وفي مثل طرفة عين، وأبياته العذبة التي ضمنها هذا المعنى، هي قوله:

لا متِّ قبلي بل أحيا وأنت معاً

ولا أعيش إلى يوم تموتينا

لكن نعيش بما نهوى ونأمله

ويرغم اللّه فينا أنف واشينا



حتى إذا قدر الرحمٰن ميتتنا
وحان من أمرنا ما ليس يعدونا

متنا جميعاً كغصني بانةٍ ذبلا
من بعد ما نضرا واستوسقا حينا

في مثل طرفة عين لا أذوق شجىً
من الممات ولا أيضاً تذوقينا

ثم السلام علينا في مضاجعنا
حتى نعود إلى ميزان منشينا

والذي يلقي نظرة عابرة على شعر الشاعر حميد بن سعيد يدرك أنه قد غلب عليه طابع الغزل الذي لا يخلو من الحكمة المرتبطة بالأسلوب الغزلي، والتي لا أخالها إلّا آخذة مكانها من ديوان الحكمة، وذلك مثل قوله:

لا خير في الحب لا تبدو شواكله
ولا ترى منه في العينين عنوانا

ولسعيد بن حميد شكاية صنعها في بيت فرد لام فيه يد الدهر التي قال: إنها تترصده وتسلب منه كلما تمتلكه يداه من الأشياء النفيسة:

كلما أحرزتْ يداي نفيساً
أسرعت نحوه يد الحدثان

○○○○○

هل من شروط الزيارة أن يكون وقتها موافقاً لصفة الزائر؟

إن من يرى أن وقت الزيارة لا بد أن يكون موافقاً لصفة الزائر من حيث اللون فإن رأيه غير موافق عليه من لدن الكثير من الناس، خاصة منهم الذين يجهلون فلسفة الشعراء الذين يرى بعضهم هذا الرأي، ويحور الأشياء وفقاً لمرئياته الخاصة التي يصوغها في أسلوب شعري يتفنن في التغزل فيه بمحبوباته وبما هن عليه من صفة، وذلك كأن يجعل ذات البشرة البيضاء لا تقوم بالزيارة ليلاً وإنما تكون زيارتها له نهاراً توافق شمسه بياضها.

والحقيقة أن لغة العشق ولسان الهوى يأتيان بما لم يكن متوقعاً، فيكون له وقع في النفس، بل ربما أوجد قناعة تكف أي رد قد يعارض ذلك الشرط العجيب ويرفضه.

ومن الشعراء الذين اشترطوا بأن تكون زيارة محبوباتهم لهم موافقة للأوقات من حيث اللون لأبشارهن الشاعر سعيد بن حميد الذي سبقت ترجمته تحت عنوان «سعيد بن حميد يتمنى أن لا يموت قبلها ولا بعدها». الذي سأل إحدى محبوباته ـ لماذا تفضل الزيارة في الليل فأجابته ـ لأنها شبيهة بالقمر في صفاء لونها، فكانت إجابتها شافية له، وقد أدرجها في تقاول شعري معها جاء بهذا النص:

وعـد الـبـدر بـالـزيـارة لـيـلاً

فـإذا مـا وفـى قـضـيـتُ نـذوري



قـلـت: سـيـدي، ولـمْ تـؤثـر الـلـيـ
ـل عـلـى بـهـجـة الـنـهـار الـمـنـيـر؟

قـال لـي: لا أحـب تـغـيـيـر رسـمـي
هـكـذا الـرسـم فـي طـلـوع الـبـدور

ثم سأل، من كانت ترى أنها شبيهة بالشمس أن تزوره في الليل فأبدت اعتذارها بتعليل وجيه جاء في نص تقاولي معها بهذه الصورة:

قـــلـــت: زوري فـــأســـبـــلـــتْ
أنـــا آتـــيـــك سُـــحـــره

قـــلـــت: فـــالـــيـــل كـــان أخـــ
ـفـــى وأدنـــى مـــســـره

فـــأجـــابـــت بـــحـــجـــة
زادت الـــقـــلـــب حـــســـره

أنـــا شـــمـــس وإنـــمـــا
تـــطـــلـــع الـــشـــمـــس بـــكـــره

ومن خلال قراءتنا لهذه الأبيات نتبين أن سعيد بن حميد كان رقيق المشاعر وأنه يتكيف مع تغزلاته تكيفاً يشنف أذن سامعه، ويترجم خواطر محبوباته اللائي تغزل بهن.

ومن جميل أغزاله قوله في هذا البيت:

إذا كـان قـلـبـي فـي يـديـك رهـيـنـةً
فـكـيـف بـلا قـلـب أصـافـي وأهـجـر

○ ○ ○ ○ ○

وبالرغم من ذلك!

والشكوى من ألم الهجر والصدود تأتي على ألسنة شعراء الغزل متواترة من حيث التشابه في الأسلوب.

والنظرة الفاحصة ربما دلت على أن منها ما هو صناعة وتصور ليس إلّا، وأن منها ما هو حقيقة تتفطر منها قلوب أهل الهوى.

وقد يختلط، ويتداخل بوح الشعراء بالشكوى من عدم مبادلة الحب بالحب فلا تكاد تميز الصادق منها من الذي نسجه الخيال خاصة منهم الشعراء القدامى الذين لا تعرف عن حياتهم شيئاً إلّا ما كان مضمناً أشعارهم.

ومن الصور الغريبة التي يتذلل فيها الشعراء العشاق لمحبوباتهم، ما سجله الشاعر أبو تمام واسمه: حبيب بن أوس بن الحارث ينتهي نسبه إلى يعرب بن قحطان ولد عام ١٩٠هـ وتوفي عام ٢٣١هـ في بعض أبيات له، حيث ذكر أن كل مساعيه التوددية التي تمليها عليه طبيعة العشق قد باءت بالفشل، وكأنما تقربه وتوسله قد وقع على صخرة صماء، يقول:

تلقّاه طيفي في الكرى فتجنّبا
وقبلت يوماً ظله فتغضبا

وخُبّر أنّي قد مررت ببابه
لأخلس منه نظرةً فتحجبا

ولو مرّت الريحُ الصبا عند أذنه
بذكرى لسبّ الريحَ أو لتعتبا



ولـم تـجـر مـنّي خـطـرةٌ بـضـمـيـره

فـتـظـهـر إلّا كـنـتُ فـيـهـا مـسـبـبـا

ومــا زاده عــنــدي قــبــيــحُ فــعــالــه

ولا الــصــد والإعــراض إلا تــحــبــبـا

وعلى الرغم من الإعراض والصد المتزايد فإن أبا تمام لم يلجأ إلى مكافأة الصد بالصد والجفا بالجفا، وإنما زاد ذلك تحبباً واستعطافاً، وهذا الأسلوب يعتبر غاية في الإصرار والإلحاح.

ويؤكد أبو تمام في أبيات أخرى أنه لن يجحد أو يكتم محبوبته ما يلاقيه من حب جعله يعيش معذباً، ويعرض الشهود على أنظار محبوبته، وشهوده في ذلك على حد تعبيره الشعري، الزفرات، والتباريح، وذلك بقوله:

لئن جحدتُك ما لاقيتُ فيك لقد

صحّتْ شهود تباريحي وتعذيبي

بزفرة بعد أخرى طالما شهدت

بأنها انتُزعتْ من صدر مكروب

لكن عدوتَ على جسمي فبنتَ به

يا من رأى الظبي عدّاءً على الذيب

○ ○ ○ ○ ○

معارضة جديدة لقصيدة ملحنة!!

في عام ١٣٦٩هـ تقريباً صنع الشاعر المصري علي محمود طه قصيدة حماسية في فلسطين بلغت الغاية في التعبير المر عما آلت إليه فلسطين، حيث ترجمت بصدق أفعال يهود بفلسطين وأهلها الذين شردوا وأصبحوا بلا أهل ولا مأوى.

وقد دوّت تلك القصيدة التي جعل عنوانها - فلسطين - في العالم العربي حيث كان أسلوبه فيها ترجمة لجميع مشاعر المتعاطفين مع الفلسطينيين من عرب ومسلمين.

وقد تسابق المطربون في تلحينها والتغني بها، فكان النجاح المنقطع النظير حليف المطرب الكبير محمد عبد الوهاب في التغني بها، حيث تكاملت له صورة الإبداع في اللحن والأداء فأصبحت جميع الإذاعات حينذاك ترددها، بل إن بعض الإذاعات اتخذت موسيقاها مقدمة لبعض البرامج والأخبار.

ولا أظن أحداً من المسنين ينسى صوت محمد عبد الوهاب وهو يترنم ببعض أبيات تلك القصيدة التي منها:

أخـي جـاوز الـظـالـمـون الـمـدى
فـحـق الـجـهـاد وحـق الـفـدا

ولانتشار هذه القصيدة بواسطة إبداع المطرب محمد عبد الوهاب في التغني بها، ولاكتمال عناصر الحماسة فيها، التفت بعض الشعراء إلى معارضتها.



ولعل أحدث القصائد المعارضة لها قصيدة قرأتها في العدد ١٣٣٢ من مجلة المجتمع الصادر في ١١ رمضان عام ١٤١٩هـ للشاعر محمود أبو دية منهاقوله:

وصهيون تبكي على الهالكين
أليس الجحيم لهم موعدا

وقالوا: السلام يرد الحقوق
ومجد الأبوة والسؤددا

وصبوا العذاب على الصابرين
وباب العدالة قد أوصدا

حماة الحمى في ظلام السجون
وزين الشباب طواه الردى

أتغصب أرضي وتُبنى البيوت
ليعلو «كهين» بها سيدا

وتنسف داري ونحن الشهود
ويكفي بيان بهم نددا

أخي قم إلى أول القبلتين
لنحمي المدينة والمسجدا

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ نحواً من ١٥ بيتاً.

والحقيقة أن في هذه المعارضة ما يدل على أن القصائد الرنانة تعيش وتبقى في الذاكرة.

○○○○○

من عجائب زخرفة القول وتحريفه
وتصحيفه وطرده وعكسه!

إن قراءة ما صنعه الكتّاب الماهرون والشعراء الحاذقون من زخارف القول، وفنون البديع يعتبر سياحة فكرية وذهنية، إذ فيها من جمال الصنعة ما يبهر العقل ويوقظ الحس وفيها ما يحقق مقدرة اللغة العربية على التكيف مع ما يريده كل صاحب قلم من زخرفة القول. متى كان عالماً بأسرارها، وجميع عواملها التي يصنع منها وبها كل ما يخطر على باله من صناعة كلامية، شعرية كانت أو نثرية، وكأنما هي عجينة بين يديه يصنع بها من الأشكال ما يريد صنعه وتمثيله.

ومن عجيب ما قرأته من تطويع اللغة في مجال الشعر، ومما هو مستطرف مما هو منثور أن العماد الكاتب مرّ على القاضي الفاضل راكباً فقال له: «سر فلا كبا بك الفرس» ففهم القاضي أن هذه الكلمة تقرأ طرداً وعكساً. فقال له بنفس الأسلوب: «دام علا العماد» فلو قرأنا الجملتين قراءة عكسية لما تغير من معناهما شيئاً، ومما يقرأ مما هو منظوم بطرقتين القصيدة التالية التي قيلت في مدح نوفل بن دارم:

إذا أتـــيــت نــوفــل بــن دارم
أمــيــر مــخــزوم وســيــف هــاشــم

وجــدتــه أظــلــم كــل ظــالــم
عــلــى الــدنــانــيــر أو الــدراهــم



وأبخل الأعراب والأعاجم
بعرضه وسره المكاتم

لا يستحي من لوم كل لائم
إذا قضى بالحق في الجرائم

ولا يراعي جانب المكارم
في جانب الحق وعدل الحاكم

يقرع من يأتيه سن النادم
إن لم يكن من قدم بقادم

وواضح من سياق هذه الأبيات أنها مدح حسن وجيد لنوفل بن دارم ما دامت على حالتها تلك، أما إذا التقطت صدور أبياتها ووضعت على التوالي وبحسب ترتيبها على هيئة نظام أبيات قصيدة الرجز، فإنها تصبح هجاء لا أقول: إنه مقذع ولكنه سيئ.

أما التصحيف والتحريف فإن صوره كثيرة جداً في الأدب العربي، وهو أكثر ما يكون عند الشعراء، لأنهم يجدون فيه شيئاً من التعمية التي لا يدرك فهمها إلّا الأذكياء. من تلك الصور، ما قاله صفي الدين الحلي في عبد آبق، وولد عاق:

ليهنك أن لي ولداً وعبداً
سواء في المقال وفي المقام

فهذا - سابق - من غير «سين»
وهذا - عاقل - من غير «لام»

○ ○ ○ ○ ○

الرقعمق ترك عقله وتحامق فكسب!!

وطرق اكتساب العيش متعددة لا حصر لها - وكل مهيأ لما خلق له -.

والناس في طلبهم لمعاشهم لا يمضون في طريق واحد، ولا بفكر واحد، ولا بجهد واحد، فهم مختلفون في كل هذه الأمور. ولهذا نرى أن كلاً يعمل فيما يتناسب مع قواه الفكرية والجسمية، بل والعقلية. وعلى هذا نجد أن كل الأعمال التي تخدم الإنسان وتؤمن مصالحه بمختلف تخصصاتها قائمة على أيدي اكتسبت المهارة في ممارستها إما بالدراسة العلمية أو بالخبرة والذكاء الفطري، وربما توارثت مزاولتها.

وكل هذه الأمور التي تديرها يد الإنسان الذي يفتخر بشرف العمل لا يدخل فيها شيء من الهزل، وإنما هناك جد وعمل متواصل دؤوب يعمر الأرض بكل ما تعنيه كلمة عمارة الأرض من معنى.

ومن الطبيعي أن لا يكون الناس جميعاً على صفة واحدة في معايشة الحياة، وسلوك طرق العيش فيها، إذ أن فيهم ومنهم من يحبذ الراحة فلا تراه يعرق له جبين من مزاولة العمل، وإنما يسلك طرقاً كلامية يستدر بها أيدي الناس، كالمنادمة والتكسب بقول الشعر لدى بعض الشعراء، وما إلى ذلك من الأمور التي تشذ عن قاعدة الالتزام بالعمل مقابل الأجر.

ومن طريف ما يرويه بعض الشعراء عن أحوالهم التي يكيفونها مع رغبات من لا يبخلون عليهم بالصلات والخلع والهبات. قول الشاعر الفكه ابن الرقعمق واسمه: أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكي المنبوز بابن الرقعمق توفي سنة ٣٩٩هـ من قصيده له، مطلعها:



عـاذلَ كـم فـيـه تـعـذلـيـنـي
وكـم إلـى كـم تـؤنـبـيـنـي

ومنها يقول:

قـد عـشـت دهـراً أعـول عـقـلـي
والـنـاس إذ ذاك يُـبـعـدونـي

فـمـذ تـحـامـقـت قـد كـسـانـي
حـمـقـي وقـد عَـالَـنِـي جـنـونـي

فـهـذا يـوافـي بـثـوب خـز
و ذا يـوافـي بـثـوب تـونـي

وذا يـفـدّي وذاك يُـهـدي
وذاك يـمـضـي وذا يـجـيـنـي

وكـل عِـلْـقٍ إلـى مَـرَاحِـي
أهـدى مـن الـطـيـر لـلـوكـون

والـنـاس يـسـعـون نـحـو داري
مـن كـل أرض ويـقـصـدونـي

وكـان خُـلـقـي لـهـم رضـيـا
أصـفـعـهـم ثـم يـصـفـعـونـي

فهل يا ترى أن نتيجة هذا التحامق كانت تجربة ناجحة يحسن بمن لا يستطيع التكسب بشعره سلوكها، أم أنها حالة فردية خاصة بالرقعمق؟. أنا لا أظن أن الشعراء الرقعمقيين قلة في عصرنا هذا بل هم كثر، لكنهم لا يدركون أنهم حمقاء بطبيعتهم لا متحامقين كتحامق الرقعمق.

○○○○○

قبل ١٣ قرن ونيف حصلت هذه المرافعة!!!

وإذا جاءت القصيدة بأسلوب قصصي، فإنها تأخذ من نفس القارئ مساحة كبيرة لتستوعب ما يخلفه التفكير في سرد القضية من حجم تصوري للموقف الذي ولدها ثم كساها ثوباً شعرياً أصبحت به غاية في النظم، وصورة بديعة في إبراز الغرض المطلوب.

والشاعر جميل بثينة واسمه: جميل بن عبد الله بن معمر من بني عذرة المتوفى سنة ٨٢هـ واحد من أبرز الشعراء الذين تحاكموا مع صويحباتهم، وقد رضي بحكم يكون من أهل بثينة كما اقترحت هي ذلك باعترافه بقوله:

فقالت أبتغي حكماً من أهلي
ولا يدري بنا الواشي المحول

وانعقد مجلس القضاء بينهما، وكان جميل هو المدعي، فوجه الكلام للحكم بقوله:

فقلت: قُتِلْتُ بغير جرم
وغب الظلم مرتعه وبيل

ثم يطلب إلى الحكم استنطاق بثينة علها تقر وينتهي الأمر:

فسل هذي متى تقضي ديوني
وهل يقضيك ذو العلل المطول

لكن بثينة ليست من الصنف الذي لا يجيد المحاورة والمراوغة، وفن المرافعة بل أخذت تكذبه وتجحد قتلها له بحجة أنها لا تملك سلاحاً

وليست بحكم تركيب طبيعتها ذات قوة تمنحها المقدرة على غلبته:

أأقـتـلـه ومـالـي مـن سـلاح
ومـا بـي لـو أقـاتـلـه حـويـل

ولـم آخـذ لـه مـالاً فـيـلـقـي
لـه ديـن عـلـيّ كـمـا يـقـول

إنه نفي قاطع لا يقوم معه دليل يساند ادعاء جميل، وليس للحكم إلاّ أن يطالب جميلاً بشهود على ادعائه:

وقـال أمـيـرهـا: هـاتـوا شـهـوداً
فقلت: شهيدي الملك الجليل

وما استطاع جميل أن يأتي بشهود على أن له ديوناً على بثينة، وأصبح في موقف الخاسر للقضية. ولكن، وطالما أن القاعدة الشرعية تقول: «البينة على المدعي واليمين على من أنكر» فإنه لم يبق أمام الحكم سوى مطالبة بثينة باليمين لإنكارها ما ادعاه جميل عليها:

فـقـال يـمـيـنـهـا وبـذاك أقـضـي
وكـل قـضـائـه حـسـن جـمـيـل

ولم تتأخر بثينة عن الحلف طالما أن اليمين ستثبت براءتها وتبطل ذلك الادعاء:

فـبـتـت حَـلـفـة مـا لـي لـديـهـا
نـقـيـر أدعـيـه ولا فـتـيـل

هذا ملخص القصيدة وهي أطول من ذلك حيث تبلغ ١٨ بيتاً. ويبقى سؤال يقول هل في أدبنا المعاصر مثل هذه المداخلات الشعرية؟ اللهم إلا عند بعض شعرائنا «الحلمنتيشيين» الذين يطالعوننا بين الفينة والأخرى بشيء من التقاول، ليس، إلّا.

أجَدّ معارضة لـ«يا ليل الصب»!!

ما رأيت، ولا سمعت، ولا قرأت، أكثر معارضة من معارضة الشعراء لقصيدة الحصري واسمه: أبو الحسن علي بن عبد المغني الحصري الفهري الضرير، ولد بمدينة القيروان عام ٤٢٠هـ ومات في طنجة عام ٤٨٨هـ ـ يا ليل الصب ـ فقد تناولتها أقلام الشعراء منذ ولادتها وحتى يومنا هذا، وقد تجاوز عدد معارضيها عددَ أبياتها بكثير، فعدد أبياتها ٩٩ بيتاً، مطلعها:

يا ليل الصب متى غده
أقيام الساعة موعده

وعدد معارضوها الذين تمكنت بجهدي الفردي ـ ٢٠١ ـ معارضاً لها، أكثرهم من شعراء القرن الرابع عشر الهجري.. وإذا نظرت إلى عالمنا العربي الواسع من حيث المساحة الجغرافية والعدد السكاني، وما يصدر عنه من جرائد ومجلات ومطبوعات لا يتيسر لي قراءة عشر معشار عددها جزمتُ بأن هناك ما يقارب أضعاف ما حصرته من معارضات لها.

ولعل أجدَّ ما قرأته من معارضاتها التي كنت أرصدها في حينها، وأخصها بموضوعات هي أشبه ما تكون بهذا الموضوع من حيث التنويه عن شغف الشعراء بمعارضتها هي تلك المعارضة التي أبدعت فيها الشاعرة السعودية المعاصرة وداد محسن الردادي، وقد نشرتها جريدة المدينة في ملحقها الأربعائي الذي صدر يوم الأربعاء ٢٣ جمادى الأولى عام ١٤١٨هـ، وقد بلغت ١٧ بيتاً ترجمت فيها الشاعرة وداد

شيئاً من الشعور بالمعاناة من بعض جوانب الحياة الخاصة بها بعد ما استلذت قافية «يا ليل الصب» وطاب لها نفحها العذب المتولد من بديع الصنعة وجمال التركيب الذي يرقص بسحر موسيقاه ذات النغم المتميز آذان كل سامع ويطرب كل منشد.

ومن قصيدة الشاعرة وداد، وهو مطلعها وما يليه من بعض الأبيات:

سهم الأجفان يؤرقه
وبقايا الأمس ستجحده

يا حزناً بات ينغصه
ووجيب القلب يسهده

طال المشوار أيا عمري
وهموم العمر تنكده

حزني بركان في صدري
ودموع العين تزوده

أحزانك طالت يا قلبي
فمتى الأفراح ستسعده

ومنها قولها:

بحري قد ضاق بمركبه
فركاب الهم تهدده

رفقاً يا حلم فما قلبي
بالصخر الصلد لتكمده

وتبقى الإشارة إلى أن معارضة نوادر القصائد مطلوب من ناحيتين، الأولى: أنها تذكر قارئها بأصلها. والثانية: حث من لم يقرأ الأصل على البحث عنه ليزداد ثقافة ومعرفة.



من ضروب الاستغراب والتعجب!!

والناس بطبيعتهم يتعجبون، ويستغربون، بل ينبهرون من الأشياء التي لم تكن مألوفة لديهم، ولم يطرق سمعهم وصف لها، مما يكون شاذاً عن محيط معرفتهم المحدودة ولكن بعض تعجباتهم تبطل إذا عرفوا الأسباب التي قامت عليها الأشياء التي أثارت تعجباتهم وبهرت أنظارهم. وذلك مثل أن يكون هناك ساق شجرة من الحمضيات قد طعِّم بأنواع من أغصن أشجار أخرى فتعددت فروعه بما لم يكن من هيئته واختلفت أنواع ثمارها، فساق شجرة برتقال ترى فروعه مثمرة ـ بليمون، وأترج ـ ويوسف أفندي، لا بد أن يُتعَجّبَ منه حتى تسود القناعة بإجراء التجربة بغرس تلك الفروع في ساق تلك البرتقالة، وعند ذلك يبطل العجب والتعجب.

.. وحديث المجالس لا يخلو من وقفات تعجبية عند استعراض السير الذاتية لبعض الناس، فإذا ما مرّ ذكر شخص برع في مختلف العلوم والآداب وذاع صيته بين الناس، ولم يكن في عشيرته سواه. حصل التعجب المغرق والاستغراب المفرط، فيحصل بذلك سياق بعض الأمثلة والتشبيهات به، خاصة إذا كانت عشيرته خاملة الذكر ولا يعرف لها لسان في الأدب والثقافة وعموم المعارف والعلوم، وذلك كأن يقولوا في وصفه وتشبيهه: حي خرج من ميت، أو: جمرة التهبت في رماد، أو: سبيكة ذهب في كوم حديد، أو: نجم في ظلماء، وقد يصفونه بالوردة النابتة في مزبلة، وذلك مثل قول الشاعر أسعد العُتْبيّ واسمه: أبو إبراهيم أسعد بن مسعود بن علي بن محمد بن الحسن العُتْبيّ المولود عام ٤٠٤هـ أما وفاته تحدد بأكثر من قول. يقول ياقوت



في معجم الأدباء: وعاش إلى آخر أيام نظام الملك، وقوله هو:

قد قيل لي: إن فلاناً غدا
يجرُّ أذيال العلا مُسْبَكه

وما ترى في قومه غير من
قد عُجنتْ طينته من بَلَه

فقلتُ: هل تعجبكم وردة
قد نبتت فينا على مزبله؟

وفتى يكون هذا تميزه في عشيرته يستحضره الذهن عند قراءة قول جابر بن ثعلب الطائي:

كأن الفتى لم يعر يوماً إذا اكتسى
ولم يك صعلوكاً إذا ما تمولا

أو قراءة قول محمد الأسمر من شعراء القرن الرابع عشر الهجري:

وما الناس إلّا اثنان ذلك عامل
ينال الذي يرجو وذلك خامل

أو قراءة قول الرصافي واسمه: معروف الرصافي ولد عام ١٨٧٥م وتوفي عام ١٩٤٥م:

ليس قدر الفتى من العيش إلّا
قدر إنتاج سعيه المتوالي

أو قراءة قول ابن المقرب واسمه: محمد بن علي بن المقرب ولد عام ٥٧٢هـ وتوفي عام ٦٢٩هـ:

وقيمة المرء فيما كان يحسنه
فاطلب لنفسك ما علو به وسل

أو قراءة قول الشريف المرتضى واسمه: علي بن الشريف أبي أحمد الحسين نقيب الطالبين ولد عام ٣٥٥هـ وتوفي عام ٤٣٦هـ:

وإذا الرجال تفاخروا أو تفاضلوا
أرسى بهم دون الورى التفضيل

❍ ❍ ❍ ❍ ❍

الأسمر يصف حاله وهو يبني القصيدة!!

والأسمر هو الشاعر المصري محمد الأسمر من شعراء القرن الرابع عشر الهجري.. مَهَّدَ لديوان شعره تمهيداً، أوقفه على تصوير حالة الشاعر أثناء بنائه للقصيدة، بعبارات هي غاية في وضوح ترجمة المعاناة التي يلقاها الشاعر الذي يرقى بشعره إلى المستوى الذي يرضى به، ويرضى عنه ذو الذوق السليم.. من ذلك التمهيد قوله معارضاً بعض الشعراء الذين يظهرون عدم المعاناة من جراء صنع القصيدة:

يظن بعض الناس أن الشعراء لا يعانون في صياغة الشعر ما يرهقهم، وقد أخبرني بعض إخواني أنهم لا يجدون في صياغتهم لما ينظمون كثيراً من العناء.. أما أنا فأجد من ذلك الشيء الكثير حتى لأحاول أحياناً اقتضاب القصيدة والخلاص منها لشدة ما أعانيه من الانفعالات بسببها فأجدها ممسكة بتلابيبي متشبثة بي كأنها أمواج قوية تجذبني إلى داخل بحر أود الخروج منه فلا أستطيع. ولا تزال هذه الأمواج تتلاعب بي حتى تقذف بي إلى الساحل، ومعنى ذلك أنني فرغت من القصيدة، أو بعبارة أقرب إلى الحقيقة أن القصيدة فرغت مني.

وفي ذلك التمهيد يقول أيضاً:

وليس لنظم الشعر عندي وقت خاص، أو مكان خاص، فإنه حيثما تحضر شياطينه أو ملائكته يأخذ عليّ كل وقتي حيثما كنت، فأقول وأنا في المنزل، وأقول وأنا في الطريق، وأقول وأنا وحدي، وأقول وأنا مع الناس. كل ذلك وأنا في شبه غيبوبة.



.. ولقد أفرغ من القصيدة أو تفرغ هي مني فأقرؤها بعد ذلك وأعجب لما بها وكيف تمت صياغتها حتى كأني لست بصاحبها.

والحقيقة أن هذا الوصف لا يصدقه إلا شاعر تظهر في أشاعره الهندسة الشعرية بكل فنياتها.

أخيراً هذه أبيات من إحدى القصائد التي ضمها ذلك الديوان، وقد كان عنوانها «رزق الأديب»:

ربِّ يا من خلقتني أين رزقي
كدتُ يا ربِّ أن أشق الجيوبا

ليتني كنت في الكنانة يا ربِّ
غراباً ولم أكن عندليبا

أنت يا ربِّ ترزق الإنس والجن
جميعاً فارزق بمصر الأديبا

إنه كالورى يريدُ «طعاماً»
و«لباساً» و«مسكناً» و«طيباً»

هو عظم كما علمت ولحم
ليس بالصخر لا يحسُّ الخطوبا

يا إلهي وأنت خير إلهٍ
لا تدعني في الناس شيئاً عجيبا

أو فخذني إليك إن كان يلقى
عندك الشاعر المكان الرحيبا

أُنشد الشعر في رحابك حقاً
وأزفّ الثناء مسكاً وطيبا

براءة بثينة تأتي في آخر حديث في حياة جميلها!!

ما من امرأة شبب بها شاعر وشاع في الناس تغزله بها، ووقف عليها أشعاره إلّا وأصابع الاتهام من بعض من يحكمون على الأشياء بمجرد السماع تشير إليها وقد تكون الإشارة طبيعية في مثل هذه الحالة، بل ربما صاحبها تشنيع وتخزية.

.. وبثينة وهي من بني الأحب من عذرة ليست إلّا واحدة ممن وقف عليهن شعر عشاقهن، واستكملت في وصفهن صور المبالغة في الغزل.

أما براءتها من الإفك والتهم المخزية فقد جاءت على لسان جميل الذي نسب إليها واسمه جميل بن عبد الله بن معمر من بني عذرة والمتوفى سنة ٨٢هـ، حيث حكى عن محمد بن جعفر الأهوازي أنه قال:

قيل: مرض جميل بمصر مرضه الذي مات فيه، فدخل العباس بن سهل عليه وهو يجود بنفسه فنظر إليه ثم قال: يا ابن سهل ما تقول في رجل لم يشرب الخمر قط، ولم يزن، ولم يقتل النفس، ولم يسرق، ويشهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ؟ قلت: أظنه قد نجا، وأرجو له الجنة، فمن هو هذا الرجل؟ قال: أنا. فقلت: ما أحسبك سلمتَ وأنت منذ عشرين سنة تشبب ببثينة!! فقال: إني لفي أول يوم من أيام الآخرة، وآخر يوم من أيام الدنيا فلا نالتني شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة. إن كنت وضعت يدي على يدها لريبة قط، فما قمنا من عنده حتى مات سنة ٨٢هـ.

ومن شعره بهذا الخصوص قوله:

لا والـذي تـسـجـد الـجـبـاهُ لـه
مـالـي بـمـا دون ثـوبـهـا خـبـرُ

ولا بـفـيـهـا ولا هـمـمـتُ بـه
مـا كـان إلّا الـحـديـث والـنـظـرُ

ومن بديع تشبيبه بها قوله:

أقـلّـبُ طـرفـي فـي الـسـمـاء لـعـلّـه
يـوافق طـرفـي طـرفـهـا حـيـن تـنـظـرُ

ومما يدلل به على عدم وجود ريبة حينما يجتمع بها قوله:

وكـان الـتـفـرق عـنـد الـصـبـاح
عـن مـثـل رائـحـةِ الـعـنـبـر

خـلـيـلان لـم يـقـربـا ريـبـة
ولـم يُـسـتَـخَـفّـا إلـى مـنـكـر

ومن بعض تشبيباته بها فيما يتعلق بكتمان السر قوله:

لعمريَ ما استودعتُ سري وسرها
سـوانـا حـذاراً أن تـشـيـع الـسـرائـر

ولا خـاطـبـتـهـا مـقـلـتـاي بـنـظـرة
فـتـعـلـم نـجـوانـا الـعـيـون الـنـواظـر

ولكن جعلت اللحظ بيني وبينها
رسـولاً فـأدى مـا تـجـن الـضـمـائـر

○○○○○

مات جميل بمصر..
ولكن هل هذا هو آخر كلام قاله؟!

في موضوع تقدم حققت كلاماً قاله جميل بثينة قبل وفاته، لكن وجدت في ديوانه الذي جمعه وحققه الدكتور حسين نصار ما يخالف ذلك، وبنص مبدوء بـ« قيل» قلت: ـ وقيل ـ هذه لا يعول عليها كمصدر لخبر يقين.. حيث لا يدرى من القائل.. وهذا هو النص بكامله: قيل: إن جميلاً لما حضرته الوفاة بمصر دعا رجلاً، فقال له: هل لك في أن أعطيك كل ما أُخلّفه على أن تفعل شيئاً أعهده إليك؟، فقال: اللهم نعم، قال: إذا أنا متُّ فخذ حُلّتي هذه في حقيبتي فاعزلها جانباً ثم كل شيء سواها لك، وارحل إلى رهط بني الأحب من عُذْرة ـ وهم رهط بثينة ـ فإذا صرت إليهم فارتحل ناقتي هذه واركبها، ثم البس حلتي هذه واشققها ثم اعل على مرتفع وصح بهذه الأبيات، لم تذكر الأبيات في تلك القصة. قيل: فلما قضى وواراه أتى رهط بثينة، ففعل ما أمره به جميل، فما استتم الأبيات حتى برزت إليه امرأة يتبعها نسوة قد بزتهن طولاً وبرزت أمامهن كأنها بدر قد برز في دُجُنّة، وهي تتعثر في كسائها حتى أتته، فقالت: يا هذا والله لئن كنت صادقاً لقد قتلتني، ولئن كنت كاذباً لقد فضحتني. قال: والله ما أنا إلّا صادق، وأخرج حلته، فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها، واجتمع نساء الحي يبكين معها ويندبنه حتى صعقت، فمكثت مغشياً عليها ساعة، ثم قامت وهي تقول:

وإن سُلُوّى عن جميل لساعة
من الدهر ما حانت ولا حان حينها





سواء علينا يا جميل بن معمر
إذا متّ بأساء الحياة ولينها

قلت: ولعله من الواضح الجلي أن هذه الحكاية مصنوعة، إذْ لم يذكر اسم الرجل الذي حمله جميل نعيه بالإضافة إلى أنها لم تنقل عن راوية من رواة العرب، ولكن صدق العلاقة القائمة على الحب بين جميل وبثينة مكنتْ من إدخالها في سيرة حبهما للإثارة ليس إلّا.

ويبقى أن نختم هذا الموضوع بشيء من تغزل جميل في محبوبته بثينة، وذلك مثل قوله:

هواك لقلبي يا بثينة كالذي
أقام فأحيا الميت وهو دفين

ومثل قوله من قصيدة طويلة:

فلو أرسلت يوماً بثينة تبتغي
يميني ولو عزت عليّ يمين

لأعطيتها ما جاء يبغي رسولها
وقلت لها بعد اليمين سليني

سليني مالي يا بثين فإنما
يُبَيَّنُ عند المال كل ضنين

ومنها:

من البيض لم تعقد نطاقا بخصرها
ولم يُرخ متنيها ارتكاض جنين

كأن دموع العين إذ شطت النوى
ببثنة يسقيها رذاذ معين

سلبية الأخذ بالتجديد بلا شرط ولا قيد!

من المعلوم أن الحياة تتجدد يوماً بعد يوم، ومن المعلوم أيضاً أن لفكر الإنسان نصيب وافر في صنع ذلك التجديد.. كيف لا والحياة التي نحياها غير الحياة التي كان أباؤنا يحيونها.. والأخذ بمبدأ التجديد بلا شرط ولا قيد لا بدّ أن تكون نسبة سلبياته في هذه الحالة على حياة بعض المجتمعات أكثر من إيجابياته خاصة منها المجتمع الإسلامي الذي يُقبل على كل تجديد لا يرى فيه تعارضاً مع مبادئ دينه. وإسلامه. وتقاليده الموافقة لمعتقداته.

ونحن إذا ما نظرنا إلى واقع حال التجديد بشكل عام وشامل لجميع أوجه الحياة. وجدنا أن مصدر نسبة كبيرة منه واقدة إلينا من مجتمعات لا نتفق معها من حيث العادات والتقاليد. فضلاً عن طبيعة الديانة، لذا فإن الأمر يتطلب منا وقفة يحكمها العقل. ويميزها الفكر الإسلامي، فما كان موافقاً من ذلك التجديد لمنهجنا الإسلامي. وغير مخلّ بعادة شريفة موروثة. أو مُبْطل لتقاليد نتميز بسموها. ونفخر بممارستها كما كان أوائلنا يفخرون بها. أخذنا به وتعاملنا معه سواء كان أدباً أو معيشة، أو زياً، أو ما سوى ذلك. وما لم يكن موافقاً لمبادئ ديننا رفضناه رفضاً باتاً.

والتجديد الذي نحذر من سلبياته وتأثيره على حياتنا ليس موقوفاً على نوع معين من أنواع التجديدات التي نشهدها.. وإنما هو كل تجديد وافد إلينا في أي صورة كانت. وأن علينا أن لا ننخدع باستبساط ممارسته أو التعامل معه في بداية الأمر فنأخذ به من باب

التساهل والتهاون بعدم تأثيره. ثم نجد نفسنا بعد ذلك مجبرين به وعليه وأن ليس لنا من خيار غيره. فنكون كالغراب الذي شاقته مشية الحمامة فأراد أن يقلدها ولم يستطع فعاد ليمشي مشيته فلم يُجِدْها. وفيما يقرب من المعنى العام لهذا الموضوع يقول الشاعر محمود غنيم:

إني أرى الناس ما زادوا رفاهيةً
في العيش زادوه تعقيداً وإشكالا

كم هان أمرٌ فقلدناه طائفةً
من الحواشي وحملناه أثقالا

تجاوز العرفُ والعاداتُ حدَّهما
فأصبحا في رقاب الناس أغلالا

يا طالما حدّ ثتني النفس قائلةً
أنحن أنعم أم أجدادنا بالا

كانت حياتهمو تضفي بساطتها
عليهمو من هدوء البال سربالا

كم للمحاكم أحكامٌ يقوم بها
في البدو فيصلُه والقول ما قالا

لا الحق ضاع إذا ماعيَّ مِدْرهُهُ
ولا ترقُّبُ يومٍ الفصل قد طالا

قدرتم الوقت تدير الشحيح به
فكدتمو تملأون الليل أعمالا

تلك إشارة لم أخص بها شيئاً معيناً مما نقوم بتجديده. وإنما هدفي الحث على عدم الغفلة عن الالتفات: بل الانتباه إلى سلبيات التجديد.

أيهما أصح رواية للفتوى، الخطيب أم ابن أبي الدنيا؟!

وتتحفنا كتب التراث الأدبي بذكر بعض المواقف الأدبية الممتعة التي تمحورها الطرافة والظرافة. فمن ذلك ما حكاه ابن أبي الدنيا واسمه: أبو بكر عبد الله بن أبي الدنيا المولود عام ٢٠٨هـ، والمتوفي عام ٢٨١هـ، من أنه حضر مجلس أبي بكر محمد بن داود الأصبهاني الظاهري المتوفى سنة ٤٩٦هـ، فجاءه رجل فدفع إليه ورقة فأخذها وتأملها طويلاً فحسبنا أنها مسألة. ثم قلبها وكتب على ظهرها شيئاً. وردها على صاحبها فنظرنا فإذا الرجل على ابن العباس ـ الشاعر المشهور ابن الرومي «المولود عام ٢٢١هـ، والمتوفى عام ٢٨٣هـ» وإذا في الرقعة شعراً:

يـا ابـن داود يـا فـقـيـه الـعـراق
أفـتـنـا فـي قـواتـل الأحـداق

هـل عـلـيـهـن فـي الـجـروح قـصـاص
أم مـبـاح لـهـا دم الـعـشـاق

وإذا الجواب الذي كتبه ابن داود:

كـيـف يـفـتـيـكـم قـتـيـل صـريـع
بـسـهـام الـفـراق والاشـتـيـاق

وقـتـيـل الـتـلاقـي أحـسـن حـالاً
عـنـد داود مـن قـتـيـل الـفـراق

لكن الحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى



سنة ٣٦٣هـ، قد أورد في كتابه «تاريخ بغداد» جواباً شعرياً للفقيه ابن داود الأصبهاني غير الجواب الذي حكاه ابن أبي الدنيا فيما تقدم. وقد كانت إجابة ابن داود عند البغدادي بهذا النص:

عـنـدي جـوابُ مَـسَـائـلِ الـعـشـاق
اسـمـعـهُ مـن قـلـق الـحـشـا مـشـتـاق

لـمـا سـألـتَ عـن الـهـوى أهـل الـهـوى
أجـريـتُ دمـعـاً لـم يـكـن بـالـرَّقـى

أخطأتَ في نفس السؤال وأن تصب
تـكُ فـي الـهـوى شـنـقـاق لا شـنـاق

لـو أن مـعـشـوقـاً يُـعـذِّبُ عـاشـقـا
كـان الـمـعـذَّبُ أنـعـم الـعـشـاق

وأغلب ظني أن ما ذكره ابن أبي الدنيا هو الجواب القريب من الصواب وذلك لأمرين:

الأول أن ابن أبي الدنيا كان معاصراً للفقيه ابن داود. وللشاعر ابن الرومي الذي وجه السؤال كما تقدم في ترجمتهم جميعاً.. أما الأمر الثاني فإن تدخل بعض الشعراء في العصر العباسي في شؤون من سبقهم من الشعراء كإضافة بعض الأشعار إلى أشعارهم. بل إن منهم من يقول شعراً وينسبه إلى غيره ممن سبقه إما من باب صناعة الطرفة الشعرية. أو التقول على بعض العلماء بما لم يقولوه خاصة الذين ليسوا على مذهبهم من أهل العلم والفكر والشعر.

قلت: ولعل القاضي كان فيما رواه ابن أبي الدنيا يرمز إلى فراق أهله وأخوته وأحبته. وإنما قرب الإجابة بأسلوب أو هم بعضهم فظن أن القاضي قد تغزل في إجابته. وهو أبعد ما يكون عن التغزل.

مديح ينقصه حسن التشبيه!!

بعض قصائد المديح تطرب وتعجب بما تقوم عليه من مفردات جميلة. وأساليب بلاغية تفوح بمسك الفصاحة وتتجلى فيها صور المبالغة، وهذا النوع لا يجد القارئ بداً من قراءته والاستمتاع بآيات جماله وعظيم صناعته وسحر بيانه.

وبعض قصائد المديح يأتي غثا متعثراً. يرهق بتكلف صناعته نفس قارئه. فلا تجد به لمحة إبداع. أو مسحة جمال. أو رنين قافية عذبة تشنف أذناً أو تعطر فكراً. أو تستوقف ذوقاً، وهذا النوع يكثر في شعرنا الحديث. وعند بعض شعراء عصرنا. حيث ضحالة الذوق الشعري تساند محدودية الثقافية مساندة يضيق معها الأفق الفكري بحيث لا يتسع لأدنى تجليات الخيال الشاعر مما يجعل قصائده مجدبة من اللمسات الإبداعية والفنية التي نقرؤها في شعر القدامى بشيء من الاستمتاع روعة التشبيه. وصدق الوصف. وعمق المبالغة.

ولقد استوقفتني قصيدة نشرتها جريدة الجزيرة في عددها ٩٠٠٨ يوم الأربعاء ١٤١٨/١/٢٢هـ، للشاعر عبد الله بن علي العسكر. عنوانها ـ شكر المعروف ـ وفيها شكر ابن خاله الدكتور عبد العزيز بن إبراهيم العسكري. على معروف أسداه إليه. النثر في رأيي أفضل من بعض أبياتها. وإن كان فيها ما فيها من مقومات الشعر البسيطة فإن هذا البيت:

أسديت معروفاً وقمت بخدمة

وبقيت طوداً شامخاً مثل السما!!!



إنه خروج على قاعدة المشبه والمشبه به. وبعيداً عن ركوب المبالغة. فقد جعل ابن خاله طوداً شبه به السماء. والمعروف أن الشاعر يشبه ممدوحة حينما يكون عظيماً مهاباً بالطود أو بالأسد حينما يكون شجاعاً أو بالبحر والمطر حينما يكون كريماً معطاءً. أما أن يجعل من ابن خاله طوداً ويشبهه بالسماء فهذا ما يكون للناقد عنده وقفة. ولصاحب الذوق نظرة ومساءلة. حيث أن الطود لا يشبه السماء علواً ولا عظمة. ولا قيمة.

أخيراً: لعله من المناسب أن أقتطف من تلك القصيدة التي تبلغ ١٥ بيتاً. قوله:

يا ابن خالي إنني لك شاكر
فلشكركم أضحى عليّ محتما

أسديت معروفاً وقمت بخدمة
وبقيت طوداً شامخاً قبل السما

لما علمت بأنني في كربة
والظلم من كيد الأعادي خيما

كنت الملاذ وبعد ربي درعنا
للّه درك من صديق قد سما

وصدق القول ربما جاء في قوله:

هذي الفضائل ما أتتك حديثة
طيب الأصول يمد نحوك سلما

فالوالد الخال الكريم بطبعه
وبطيب قلب قد تميز وأنتما



وكذا الجوار بحسنه شهد الورى
والقول صدقاً بادئاً ومختماً

يا شيخ فاقبل شكرنا وسلامنا
فالله أسأل أن يديمك سالما

وإذا ما أخذنا بأنه مجرد ترجمة مشاعر فإن نقده يكون أخف وطأة.

○○○○○

لماذا.. جرير. والفرزدق!!

والذي يقرأ ديوان الشاعر محمود صفوت الساعاتي ابن مصطفى أغا الزيْله لي. المولود بالقاهرة عام ١٢٤١هـ، والمتوفى بها عام ١٢٩٨هـ، والذي جمعه مصطفى رشيد وطبعه على نفقته عام ١٣٢٩هـ. لا بدّ أن يحشد بعض الأسئلة عند قراءة ما كان الساعاتي يفتخر به من شاعرية على بعض شعراء عصره الذين كان لهم تقاول معه. وبخاصة مثل قوله:

فلا كنتُ قلتُ الشعر إن أكن به
أمـزق ذاك الـعـرض كـل مـمـزق

ليعلم من في الشرق والغرب أنني
صفعت جريراً قبل صفع الفرزدق

ولعل من أهم الأسئلة التي تتبادر إلى الذهن. تكون على النحو التالي: هل كان بين الشعراء الذين كان يتقاول معهم شاعرين أحدهما اسمه جرير والآخر الفرزدق؟ بالطبع لا، أم أنه قطع المسافة الزمنية التي لا تقل عن ١٢٠٠ سنة ليختار هذين الشاعرين للصفع بشيء من الاستعلاء وغرور النفس؟ وهذا الأقرب بالطبع، أم أنه أراد أن يفتل عضلاته على أضداده من الشعراء فتظاهر بأنه أشعر من جرير والفرزدق؟. أما أنها الشهادة لهما بأنهما أشعر الشعراء الذين تعاقبوا على صناعة الشعر خلال تلك الفترة التي فصلت بينه وبينهما. فأساء الأدب بإساءة التعبير بإدلاء بالشهادة فجعل قيمتها الجرأة على القول بصفعهما حيث الأمان يملأ قلبه من عدم معاقبته من قبلهما؟ وهذا هو عين الحقيقة وروح الواقع.

بعد هذا لا بد لنا من الوقوف على شيء مما قاله الشاعران الأمويان

جرير والفرزدق على قافية ـ القاف ـ لنرى وإن كنا لا نبخس شاعرية الساعاتي.. هل أتى بشيء يفوق قولهما في المخاصمة أو غيرها من أنواع التهاجي؟! فهذا جرير وهو يهجو بني الأرقم بأسلوب الناصح لهم، يقول:

ورُبُّو الذي بيني وبين قديمكم
وكفوا الأذى عنّي يلين لكم خُلقي

فإني لسهل للصديق ملاطف
وللكاشح العادي شجى داخل الحلق

وإذا كان هذا ليس من أحسن مما قاله جرير لأن القافية منعتني من الاختيار.. فهل يُتطاول عليه بالصفع؟ وهل يصفع الفرزدق الذي يقول مفتخراً.

أنا المطعم المقرورَ في ليلة الصَّبا
وأجهلُ من يخشى الجهولَ بوائقه

وهل يصفع الفرزدق والذي يفتخر بشعره وقوة تأثيره. وذلك في قوله مخاطباً كليبا:

لو كنتَ تحت الأرض شقّ حديدَها
قوافيَّ عن كلب مع اللحد لاصق

ونحن إذا عدّتْ تميم قديمها
مكان النواصي من وجده السوابق

وفي قوله مادحاً الزعل بن عروة الجرمي:

إذا اجتمع الأقوام أيَّة باسمه
أمام النواصي عند باب لسرادق

وسواء كان الساعاتي يقصد التعالي على خصومة. أم أن نفسه تحدثه حقيقة بأنه أشعر منهما، فإن قوله مردود جملة وتفصيلاً في كلا حالتيه.



الأفارقة سود بأبدانهم ليس إلّا!!

والبشرة السوداء لا تعني تميزاً مذموماً على الإطلاق. فهي والبشرة البيضاء والسمراء على حد سواء بكل ما تعنيه الإنسانية من قيم. وإنما التميز في اللون فقط لا في العقول والأفهام وسائر الحواس الفكرية والإدراكية، فهم وبطبيعة الحال التي نعرفها فيهم يشاركون سواهم من ذوي الألوان الأخرى في كل ما يرتبط بالعقل، والقلب، والضمير.

وإن كان هناك ميزة فهو سواد أبدانهم. أما نفوسهم فهي أشد إشراقاً من غيرها. وقلوبهم أشد نقاء من غيرها. وهم من أكثر شعوب العالم التزاماً بأدب المنطق:

سُمُّوا عبيداً لأن الليل شاركهم
في صمته فاستزادوا الصمت ألوانا
والشمس في وهْجها زادتهم عبقاً
فبادلوها العطا بالحب إدمانا
ناس هم الزهد لَا حقدٌ ولا نهم
ما عابهم أن يكونوا السودَ أبدانا
سود بأجسادهم بيض بأفئدة
ترعى المودة إسراراً وإعلانا

وإذا ما نظرنا إليهم نظرة اجتماعية. فإن واقع حياتهم بين شعوب العالم قد جعلتهم في حالة من البساطة التي أثمرت بالفاقة والجهل فاستغلتهم الدول الطاغية التي تستعبد الشعوب في أوطانهم. وقد أشار



إلى هذا الظلم الذي وقع عليهم بعض شعراء العرب المعاصرين مثل الشاعر سعيد إبراهيم فياض الذي قال في قصيدة له عنوانها: «أحرار لا عبيد» ومنها الأبيات التي تقدمت أنفاً. وقوله منها أيضاً:

وفي السلام استغل الظلم فاقتهم
وازداد قاهرهم عَسْفاً وطغيانا

لكن المتتبع لتاريخ أفريقيا السوداء يجد أن معظم شعوبها خرج من صمته وواجه عدوه بحزم وعزم لا يغله الحديد فانتصرت عليه وأخذت تمارس حياتها بكل حرية وذلك ما أشار إليه الشاعر سعيد بقوله:

فلازموا الصمت حتى عيل صبرهم
بمن أذلّهم خَفْياً وتبيانا

والعالم الذي لا يقر الظلم والاستعباد يقف إلى جانبهم ويؤيد ثوراتهم على مصاص دماء الشعوب.. وما يعذلهم على وقفتهم في وجه الطغاة الباغين إلّا من لم يمسه ظلم المستعمرين وقسوة قلوبهم:

لا تعذلوهم إذا ثاروا على عنت
وفجروا من جمار الذل بركانا

مستبشرين ولو باتوا له ضرماً
ما دام يجعل صرح الظلم قيعانا

○○○○○

عندما تكون الإجابة الصادقة مرة.
يُطلب الإعفاء من السؤال!!

لا شك أن الحياة بجميع جوانبها تحتمل من الأوصاف ما لا حصر له. وأن من بين أوصافها ما هو متداخل تداخل أنواع السوائل ذات الألوان والطعوم المختلفة عندما تمزج ببعضها. ولهذا نرى كلاً يعبر عنها بما قد اتفق له منها ووائم طبعه سواء كان ذلك في حالة المسرة أو المضرة. لأن لسان حاله يصف سلبيتها وإيجابيتها على حد سواء. ووفقاً لما يطيب له تناول وصفه من جوانبها.

وإذا علمنا أن الناس درجات في الحياة الاجتماعية يرتفع بعضها عن البعض الآخر فإنه من الطبيعي أن يكون للحياة مادح يعيش في بحبوحة نعيمها. وقادح قد تجرع مرعيشها وذاق منها البأساء والضراء.

وعلاقة الإنسان بالإنسان تشكل جانباً مهما وكبيراً من الحياة بصفة عامة. ولهذا نجد بين الناس تداخلات اقتصادية. وأدبية، وعلمية، وأخلاقية، وعقيدية، وفكرية قائمة بينهم مما جعلها أُمماً منها ما هو متفق ومنها ما هو مختلف. والأمة التي تسمو بتطبيق معاني الإنسانية. وتنطلق في حياتها من مبادئ الحب والصدق هي التي تؤثر في الحياة وتترك بعض الرموز التي يكتب لها البقاء كشاهد لها.

والذي يمارس الحياة عن فهم بواقع الذين يعايشونه يلمس منهم عدم الثقة فيتحاشى الإجابة عما هم عليه من حالة لا تتفق والمنهج الأدبي الذي يجب أن تتحلى به النفوس التي تسمو بأصحابها إلى ما يليق بها من حيث المكانة الإنسانية.

وفيما يقرب من هذا المفهوم يقول الشاعر سعيد إبراهيم فياض من قصيدة له عنوانها «بوح المعاناة» مطلعها:

لا تسلني لم اتبعدتَ عن الناس
وفضلتَ أن تعيش وحيدا

بعد ما كنتَ بالصحاب ولوعاً
لا تُطيقُ المقام عنهم بعيدا

لا تسلني بل سلهم علّ فيهم
واعياً منصفاً صدوقاً ودودا

يَعذُرُ العندليبَ لو هزه الشوق
إلى الجو سابحاً غريدا

ومنها قوله:

لا تسلني لم ابتعدتَ وسلني
كيف يرضى الواعي ضياعاً مديدا

بين خمر وميسر وابتذال
في المواخير.. لاهثاً مكدودا

تتلقاه بالأثام تباعا
بؤرٌ لا تنز إلّا صديدا

مستهيناً بخُلقِه وحجاه
عاصياً ربه العليّ الحميدا

○○○○○

الفسدة من الورثة!!

يجمع الرجل المال ويحبه حباً يعادل حبه لنفسه. وفي القرآن الكريم: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفجر: ٢٠]. وإن الرجل يحس بالراحة في جمعه رغم ما يعانيه في ذلك من كد لجسمه وإنه ليجد في السهر على حساب أرباحه وحركة أعماله اليومية لذة ومتعة. وتلك هي سنة الحياة وزينتها قال تعالى في سورة الكهف آية ٤٦: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝٤٦﴾.

وعلى الرغم من هذا الجهد الذي يبذله الإنسان في جمع المال. فإن النهاية المحتومة تقرر تخليه عنه حتماً حينما يستوقفه الأجل. فيصبح ذلك المال وتلك التجارة إرثاً لورثته الذين لم ينالهم مشقة في تصريفه في وجوهه المربحة.

ونحن إذا ما نظرنا إلى واقع حال ورثة ذلك المال. وجدناهم بطبيعتهم ينقسمون في غالب الأحيان إلى قسمين: قسم يمثل فئة تحسن التصرف فيما ترثه من أحوال فتجعل منه ما يوجب الدعاء لمورثه لهم.. وهذه الفئة ترد بعض الجميل لمورثه.

أما القسم الثاني فيمثل فئة تسيء التصرف فيما ترثه من أموال. وتجعل منه قوة لها على الفساد وارتكاب المعاصي. ومنطلقاً للغواية التي تسلك بها طريقاً يبتعد بها عن ذكر اسم مورثها والدعاء له بالرحمة والمغفرة.

وهذه الفئة الأخيرة هي التي تكون في الغالب محط الأنظار. وهدف الاعتبار وعليها ترتكز ملاحظات المنتقدين وألسنة الشعراء.

قال أبو الحسن الباخرزي في كتابه «دمية القصر وعصرة أهل



العصر»: تأسف الشيخ الإمام أبو عامر الفضل بن إسماعيل التميمي الجرجاني المتوفى في النصف الأخير من القرن الخامس الهجري على مواريث الشيخ الرئيس أبي ربيعة ووقوع الورثة فيها ووقوع السوس في الخز والسرحان في السرح. فقال قصيدة منها:

برغمي أن أرى في كل يوم
تراث أبي ربيعة في المعاصي

فشطر في مواردة البغايا
وشطر في أباريق الرصاص

فلا في الجود مصرفهن يوماً
ولا في شبع أيتام خماص

ألا فسقى الإله ضريح عمرو
بوارق غير مخلفة النشاص[1]

وإن خلّاهم فينا تيوسا
تناطح كل يوم بالصياصي[2]

أراذل حين تخبرُهم تراهم
وما هم باللباب ولا المُصَاص[3]

وكان فساد مولدهم يقيناً
من الأم اللموح من الخصاص

فقد شمطت ذوائبها وليست
على أمر سوى فتل العقاص[4]

---

(١) النشاص: السحاب المرتفع.
(٢) الصياصي: القرون.
(٣) المصاص: مصاص كل شيء خالصه.
(٤) العقاص: الضفائر.

لماذا لا تكون قصيدة الصولي
هي أساس المعارضات؟

لقد وقفت على ما ينيف على مائة وعشرين قصيدة كلها تعدُّ معارضة لقصيدة الحصري التي مطلعها:

يـا لـيـل الـصـب مـتـى غـده
أقـيـام الـسـاعـة مـوعـده

والحصري هو: أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري القيرواني الضرير نسبة إلى أنه أعمى. ثم الحصري نسبة إلى صناعة الحصر. ولد عام ٤٢٠هـ، في القيروان وتوفي في طنجة عام ٤٨٨هـ.

قلت إن جميع القصائد التي قيلت على نمط «ليل الصب» يعدّها النقاد معارضة لها بينما الواقع إن الحصري كان معارضاً بها قصيدة الصولي. أو أنه وقع الحافر على الحافر كما يقولون في التوافقات الشعرية، وحينما أقول أن الحصري كان معارضاً للصولي فلأن الصولي كان متقدماً من حيث الزمن على الحصري. فالصولي واسمه: أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول تكين كان في نحو سنة ٢٦٠هـ، في بغداد شاباً صلب العود وأنه مات بالبصرة سنة ٣٣٦هـ، ومعنى هذا أن الصولي متقدم على الحصري بنحو ١٥٢ سنة. فلماذا يغمط النقاد حق الصولي وهو صاحب هذا النمط من حيث الوزن والقافية. ولا يجعلون ما قيل على وزنها وقافيتها معارضة لما قاله الصولي؟!!.

أقول لماذا بلهجة فيها شيء من التراخي إذا ما قارنت بين أسلوب الشاعرين لأن حسن الصياغة وجودة الحبك وعذوبة العبارة كانت عند الحصري أفضل مما عند الصولي. ولكن إذا ما أخذنا بقولهم، الفضل للمتقدم. فإن الصولي يكون له نصيب من نسبة المعارضات - حتى وإن كانت قصيدة - ليل الصب، أشهر من نار على علم في ميدان الشعر لتميزها بالصفات التي ذكرتها آنفاً. فإن قصيدة الصولي التي تبلغ ٥١ بيتاً ليس فيها ما يدعو إلى التغافل عنها. فهي ذات قيمة أدبية ولها مكانة من حيث مناسبة إنشادها حيث ذكر الصولي في كتابه «كتاب الأوراق» أنه أنشدها في مدح الراضى بالله.. ولعله من المحتم أن ننظر في قصيدة الصولي وأن نقتطف منها ما يتسع له المجال.. فبداية نراه قد استهلها بقوله:

مُتَيَّمٌ متلفه تلدُّدُهُ
بانَ لبين لهوى تجلّده

ومما امتدح به الراضى بالله فيها قوله:

أما ترى ماكفاه من خطر
غائره معجز ومنجده

لا يبلغ الفكر كشف غمته
يعوم في خَيْرَةٍ تَرُدّده

يسل رأياً كالسيف وقفته
ويحتوي سيفه ويُغمده

إن قال قولاً وفى به عجلا
يهديه للرأي فيه أرشده

فكل وقت له شريطته
يُصْدر هذا ما ذاك يورده

ويختمها بقوله:

فــإنــه أعــلــم الــمــلــوك بــمــا
يــفــعــل والله فــيــه يُــرشــده

وبعد. أليس من حق الصولي أن نجعل كل قصيدة على هذا النمط معارضة لقصيدته تلك لأنه المتقدم؟..

○○○○○

الغربة في غير معناها اللفظي!!

والغربة في معناها. وفي ظاهر لفظها تعني البعد عن الأهل والوطن. لكنها تأتي في بعض المقولات التي تصدر من بعض الناس أحياناً خاصة منهم الشعراء على عكس مفهومها اللفظي.

والغرباء يشكلون من حيث طبيعة غربتهم فئات وجماعات يختلفون في التعبير عن مشاعرهم في غربتهم.

وأبرز الفئات التي تختلف مشاعرها عند التعريف بالغربة. فئتان أحدهما ترى أن لا غربة لها في أي مكان كان طالما أنها تملك مالاً. وإنما الغربة ربما تكون عند الأهل حتى وإن كان لديها المال إذا لم يكن في الأهل مشاكل لها في الطبع والخلق والمزاج وهذا ما أشار إليه الشاعر حسين بن شدقم الحسيني المتوفى سنة ١٠٤٦هـ والذي لم تطب له المدينة المنورة فسافر إلى الهند. وهناك قال:

وليس غريباً من نأى عن دياره
إذا كان ذا مال وينسب للفضل

وإني غريب بين سكان طيبة
وإن كنت ذا مال وعلم وفي أهلي

وليس ذهاب الروح يوماً منيّةً
ولكن ذهاب الروح في عدم الشكل

والفئة الثانية لم تغترب غربة بمعناها ولفظها الصحيح وإنما عَزَتْ غربتها لعدم وجود شكلها في بلدها. وذلك مثل قول البستي واسمه:



أبو الفتح علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البستي ولد عام ٣٣٥هـ، تقريباً ومات عام ٤٠٠هـ تقريباً.

وإني غريب بين بست وأهلها
وإن كان فيها جيرتي وبها أهلي

وما غربة الإنسان في شقة النوى
ولكنها والله في عدم الشكل

وهذا هو عين قول العامة: «إذا أردت أن تذله فاجعله في غير شكله» وإلى هذا المعنى نظر ابن معصوم واسمه: السيد علي صدر الدين المدني بن الأمير نظام الدين أحمد بن محمد بن معصوم. ينتهي بنسبه إلى خليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولد ابن معصوم عام ١٠٥١هـ، وتوفي سنة ١١٢٠هـ، ورسم الصورة رسماً واضحاً بقوله:

وإني غريب بين قومي وجيرتي
وأهلي حتى ما كأنهم أهلي

وليس غريب الدار من راح نائياً
عن الأهل لكن من غدا نائي الشكل

فمن لي بخلٍ في الزمان مشاكل
ألف به من طول النوى شملي

ooooo

ملاحظة شاعر

وتبدو بعض. أو قل أكثر ملاحظات الشعراء على بعض المواقف التي تمس التقاليد والعادات بما يحط من قيمتها أو شرف مكانتها، واضحة الاستنكار على كل من يحاول طمسها. أو استبدالها بما يروق له من عادات وصفات قوم ليسوا من أهل. ديننا. ولا من بني قومنا.

وتراهم ـ والمعنى بذلك الشعراء ـ يقفون ممن وقفت فيه روح التأثر بالزّي وبالطبع. أفاعيلها فينسلخ من صفة كان يتصف بها موقفاً يمتزج فيه التأنيب بالسخرية حيناً. والرفض وإعلان الاستنكار حيناً آخر.

وأكثر ما تسجل فيه حالات الرغبة عما هو سائد من تقاليد موروثة ومنسجمة بصفة عامة مع العقيدة وأخلاق الإسلام في صفوف المسافرين إلى خارج البلاد حيث تضعف نفوس بعض الشباب أما المغريات التي يراد بها تحطيم شموخ الروح الأبية في نفوسهم. فتراهم حينما يرون أشياء تنادي طيش الشباب وتمهد له الطريق التي لا يسلكها إلا بالتحلل من أخلاقه وتقاليده وعاداته. فتستجيب لها عقولهم ويستحسنون ممارستها. وهم خارج بلادهم.. وعند عودتهم يصعب عليهم التخلي عنها وهنا يكمن سر الملاحظة التي نصبوا أنفسهم لها.

والملاحظة الشعرية التي بين يدي هي من صنع الشاعرة السعودية المعاصرة زكية حاجي حيث ترجمت حالة شاب سافر إلى بلاد لا تمت تقاليدنا إلى أخلاقيات أهلها وعاداتهم بأية صلة ولا حتى بالزّي والمظهر العام.. ومن عناصر عرض تلك الحالة قولها:

هـذي حـكـايـة عـائـد مـتـأنـق

بـلـبـاس غـربـي وعـجـم لـسـان

أغـرتـه فـاتـنـة زيـف حـضـارة

قـد كـان قـبـل يـذيـع صـوت أذان

ولقد غير هذا الإغراء كل شيء من مظهره حتى كاد لا يعرف عندما عاد إلى أهله وصحابه.

عـاد الأنـيـس وقـد تـغـيـر رسـمـه

فـغـدا كـنـجـوى أو نـقـول كـ«نـانـي»

فـالـشـعـر مـنـسـرح كـريـش حـمـامـة

والـحـرف مـن شـفـتـيـه فـي روغـان

وكانت نتيجة هذا السفر صعبة. حيث قوبل بعد عودته بالسخرية من هيئته وشكله. فكان التساؤل منه أصعب من السخرية به.

ما بال أصحابي..!! تساءل ضاحكاً

قـد أنـكـرونـي. بـالـعـيـب زمـانـي

مـا بـال قـريـتـنـا يـغـص مـدارهـا

بـمـجـالـس شـعـبـيـة، ودكـان

مـا بـال نـسـوتـنـا كـلـيـل فـاحـم

يـسـد لـن بـالأسـمـال حـسـن حـسـان

مـا بـال مـنـزلـنـا يـمـوت بـصـمـتـه

هـلا طـربـت بـ«وصـلـة وأغـانـي»

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ ٢٥ بيتاً نشرتها جريدة «الندوة» في عددها ١١٤٧٩، الصادر يوم السبت ١٤١٧/٣/٢٦هـ.

ملاحظة على بعض الأئمة!!

وبعض أئمة المساجد هداهم الله وسامحهم قد طمع في الإمامة. وحمل نفسه عليها من الزاوية المادية البحتة.

وفي عصرنا هذا بالذات حيث خصص لإمام المسجد ومؤذنه مسكناً واسعاً ومريحاً. ومكافأة مادية مجزية أخذ بعضهم في التسابق على طلب الإمامة.

وكم من إمام أجاز لنفسه إمامة الناس لذلك السبب لا عن رغبة منه في أن تكون الإمامة عوناً له علىٰ العبادة. وأنه أهل لها في نفس الوقت.

ومن هذا المنطلق المادي البحت نجد بعضهم قد نصب نفسه للإمامة وأقدم عليها. وهو لا يجيد قراءة القرآن إجادة تامة. ولا يعرف أبسط أبجديات تجويده. بل إنه لا يحسن قراءة بعض الآيات من حيث اللفظ الشكلي لها فتراه ينصب المرفوع. ويرفع المنصوب جهلاً بقواعد اللغة وعلوم النحو. لا عن عدم مبالاة أو تعمد.

وربما تذاكى بعضهم فأخذ يغطي جهله بواجبات الصلاة وآدابها بالإطالة في الركوع والسجود إطالة مملة.. ومثل هذا الإمام الذي أقحم نفسه فيما لا يحسن فعله. وأظهر مصلحته على دينه. قد نظر إليه بعض الشعراء ووصف واقع حاله. كالشاعر الإمام الحسن بن أبي الطيب الباخرزي من شعراء القرن الخامس الهجري الذي وصف إماماً ثقيلاً في قصيدة أكثر فيها من التضمين لبعض أبيات معلقة امرئ القيس منها قوله:



يؤم بنا في الخمس قُطّع خمسه
وأمَّ بصخرٍ حطه السيل من عل

يطيل مقاماً في القيام كأنه
منارةُ ممسٍ راهبٍ متبتل

ويبطئُ لبثاً في السجود كما هوىٰ
مكبّاً على الأذقان دوحُ الكنهبل[1]

ويفحش في القرآن لحناً كأنما
تعاطى كؤوساً من رحيق وسلسل

ويمكث بين السجدتين كأنما
يشدّ بأمراس إلى صم جندل

فقلت له لما تمطى بصلبه
وأردف أعجازاً وناء بكلكل

وزاد برغمي ركعةً في صلاته
وقد فاض حتى بلَّ دمعي فحملي

ألا أيها الشيخ الطويل صلاته
ألم يكن التسليم منك بأمثل

○○○○○

(١) الكنهبل: الشجر العظيم.

من أقسى صور الجفاء!!

العشاق لا يستريح بال أي منهم ما لم يقرأ السرور في وجه محبوبته.. بل هم في قلق دائم لا تهدأ لهم قلوب ولا تطمئن لهم نفوس. إذ كل منهم يعيش مكلفاً نفسه في البحث عما يرضي به محبوبته، ثم إنه إذا عرف الطريق أو الأسلوب الذي يحمل على الرضى عنه، والاطمئنان إليه. ورأى نفسه محققاً مشاعر محبوبته. ومتملكاً نواصي حبها له، أخذت الشكوك والوساوس تغزو خواطره وتساور نفسه إلى أن يطوف به طائف التفكير فيما سيعقب هذا الإئتلاف الذي تم من تباعد يمحو بأساه وحزنه ذلك التواصل ويقطع حبل الإئتلاف. ولعلمه بأن بلوغ النهاية ما هو إلا مؤشر. بل منطلق نحو العودة إلى حيث البداية.

ولهذا فالعاشق يعيش بين أمل يتحقق. وخوف من نأى أو جفوة تحدث. وما أكثر الشكاوي من النأى ومن قسوة الجفا.

والناظر في صور الشكاوي يجد فيها تعبيرات مختلفة من حيث وصف الجفوة وقوة وقعها على النفس وتأثيرها على حياة العاشق.

وسوف أكتفي بذكر صورة من صور قسوة الجفا التي يلاقيها العشاق من بعض محبوباتهم.

والصورة التي اخترتها لأدلل بها على ما وصفته أنفاً. هي تلك الصورة التي سجلها الشاعر أبو تمام. واسمه: حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس ينتهي نسبه إلى يعرب من قحطان ولد عام ١٩٠هـ، وتوفي عام ٢٣١هـ، وفيها يقول:

تلقّاه طيفي في الكرى فتجنّبا
وقبلتُ يوماً ظله فتغضبا

وخُبِّرَ أني قد مررت ببابه
لأخلسَ منه نظرةً فتحجبا

ولو مَرّتِ الريحُ الصبا عند أذنه
بذكر لسبّ الريحَ أو لتعتبا

ولم تجر منّي خطرةٌ بضميره
فتظهر إلّا كنتُ فيها مسببا

وما زاده عندي قبيحُ فعاله
ولا الصدُّ والإعراض إلا تحببا

وصورة أخرى يسجلها أبو تمام ضمن أبيات غزلية يقول فيها:

قرّبَتْها المنى وباعدها النـ
أيُ فأضحت مني بعيداً قريباً

إن تكن مقلتي إذا غبتِ تس
تولي عليها الدموع حتى تؤبا

فلكم نظرةٍ تسرُّبها منـ
ـكِ لها روعةٌ تشق القلوبا

ooooo

عندما تقل الهدية عن قيمة مهديها!!

والهدية كثيراً ما تكون عنواناً لمهديها. بل إنها تترجم في كثير من الأحيان القيمة المادية لمستوى مهديها. وربما كانت مقياساً للقيمة المعنوية والأدبية لشخصيته.

وعندما تسبب خيبة أمل للمهداة إليه. فإن من المهدين ـ بفتح الدال ـ من لا يدع انتقاد المهدي. بل ربما اتخذ من تفاهة الهدية المزجاة إليه قاعدة عريضة إما لهجاء المهدي بصريح العبارة. أو لإتخاذها وسيلة للمداعبة اللاذعة والسخرية التي تلامس حقيقة الأمر من زوايا ينضح من خلالها الهجاء المغلف بالمداعبة.

وهذه الطريقة الأخيرة يستملحها القارئ العادي ويعتبرها من باب الفكاهة والتظرف ولا ينظر إليها على أنها فن من فنون الهجاء المبطن.

أما متلقيها فإنه وبلا أدنى شك سيوجعه ذلك. بل وسيصب في أذنه ما يخجله. ويجعله يحدث نفسه حديث الندم على حقارة هديته ومما احتفظ به تاريخ الأدب من تلك المواقف الدعابية الطريفة التي سجل الشعر أحداثها. ما رواه لنا العباس بن علي بن نور الدين المكي الحسني الموسوي في كتابه «نزهة الجليس وأمنية الأديب الأنيس». من أن الشاعر علي بن صالح بن أبي الرجال قد أهداه الإمام المؤيد بالله بن محمد بن المتوكل على الله. خروفاً هزيلاً تقل قيمته عن أي هدية من المتوكل على الله لمثل الشاعر ابن أبي الرجال. فكانت فرصة لابن أبي الرجال يداعب بها المتوكل على الله في قصيدة أطال فيها وصف ذلك الخروف. استهلها بقوله:



سمحتَ لنا يا ابن الخليفة بالذي
طلبناه من كفيك في ساعة العسر

وجاء في بعض أبياتها بما يشبه التشريح للخروف وذلك بقوله:

وجادت أياديك الكريمة بعدما
تخيرتُ في مدحي لها محكم الشعر

بكبش مع الجزار لا شك أنه
حليف هوى مضى الفؤاد من الهجر

يحاكي خيال الطيف في سقم جسمه
ويهتز من مر النسيم إذا يسرى

ولم يبق فيه قوت يوم لنملة
ولا ما يطفِّي الجمر إن حط في الجمر

ولا ما يجر المرء منه بظفره
فقد صار منه العظم أنقى من الظفر

فيا طالما أمسى وأصبح طاوياً
ومربطه خال من البول والبعر

وكيف يرجى بعر كبش طعامه
نسيم الصبا إن مر في ساعة الفجر

وإن كان لي تعليق على ذلك. فهو القول بأن هذه القصيدة ليست مداعبة. وإنما هي هجاء ما بعده هجاء في وصف البخل.

○○○○○

مهلاً.. فأنا متلاين لكم؟!

بلسان صديقي الذي كان يتحاشى كتابة الحديث عن نفسه. أقول: عتبت على فئة من بني قومي عتاباً له مسبباته وموجباته، وقد أنحيت باللائمة عليهم لتقاعسهم عن مسؤولية كان التقاعس عنها يسيء إليّ ويصل إليهم بعض ضبابها.

وقد كان عامل الزمن كفيل بأن يمحو من نفسي أثر ذلك العتاب، ويغسل أصباغ ذلك اللوم حيث العهد على وقوعه قد تقادم وأخلقت شمس العقود جدته.

ولكنهم لجوا في عمههم واعتبروا لومي تحاملاً عليهم. وعتابي تسخطاً منهم. وحيث أخذوا يزيدون على الخطوة التي أتقرب بها إليهم خطوتين في الابتعاد عني. ظناً منهم بأنهم يجازونني وقد جهلوا بمبادئ المجازاة وقواعدها الشرعية والأدبية والسلوكية، فتباً لهم من بني قوم لا يعرفون مقاييس الأمور. ولا يميزون مواقف المحاسبة. ولا يدرؤون عن أنفسهم مساءات الألسن.

ولقد حاولت أن أعالج جهلهم وأتلمس مواطن ضعف عقلياتهم بأسلوب الملاينة والملاطفة عَلّ ذلك يكون بلسماً لجرح رَمَّ على فساد من تصوراتهم التي لا ترى للإساءة قياساً يمكن أن يحد من التوغل في العمق والبعد. ويصل إلى حد تتعذر معه النجاة. وتنعكس فيه أساليب الملاينة التي ما زلت أطرحها على بساط التودد لهم. الذي كتب على حاشيتة قول الشاعر جمال الدين علي بن المقرب العيوني المولود بالأحساء عام ٥٧٢هـ، والمتوفى عام ٦٢٩هـ.

فـآهٍ مـن الـتّـفـرق والـتـنـائـي
وآهٍ مـن الـتـجـمـع والـتـدانـي

وقد ظنوا أن تلايني لهم عن ضعف في إرادتي. أو رثاثة في شكيمتي. وأنا قد كتبت على حاشية ذلك البساط قول ابن المقرب:

وكـيـف يـرى الـخـمـول فـتـى أبـوه
أبـى وجـنـانـه الـمـاضـي جـنـانـي

وقد بدا لي أنهم فسروا مباسطتي لهم بلين مني لا عن تلاين. وبصغار لا عن تصاغر. وبذلة لا عن تذلل. فأدركت أنهم ما زالوا في جهلهم يعمهون. وتبينت أنهم لا يدركون واقع الحياة الاجتماعية القائمة بيننا على قربي. الأصل فيها عمود للنسب ورابطة الانتماء. فخاطبتهم ببيت ابن المقرب:

مـن عـزّ مـنـكـم كـان أكـبـر هـمـه
شـق الـعـصـا وتـذكـر الأضـغـان

وإن جاز أن أصل ما تقدم بشيء من الشعر المناسب للموقف فأقرب شيء إلى ذلك قول أمية بن عبد العزيز الداني وكنيته: أبو الصلت ولد عام ٤٦٠هـ، وتوفي عام ٥٢٦هـ.

ومـضـطـرب الـضـلـوع عـلـي غـيـظاً
ألـانـتُ لـه قـيـادي فـازدرانـي

تـسـحّـب فـي الـمـقـال عـلـيّ لـمـا
سـكـنـت لـه سـكـون الأفـعـوان

ولـو أنـي أسـاجـل مـنـه كـفـؤاً
بـيـوم الـفـخـر أو يـوم الـطـعـان

لـكـف لـسـانـه عـنـي بـلـيـغ
كـأن لـسـانـه الـعـضـب الـيـمـانـي

أخيراً: جعل قول صالح بن عبد القدوس خاتمة لهذا الموضوع. وهو:

أرضى عن المرء ما أصفى مودته
وليس شيء مع البغضاء يرضيني

إذ هو الغاية المترجمة لما يختلج في النفس. وما معين سوى الله فهو المستعان على كل أمر.

OOOOO

ليس من الضروري أن تكون المتعلمة.. معلمة!!

إن مجرد إلقاء نظرة على الحياة الاجتماعية من الناحية العلمية والثقافية. تحقق لنا ما يشبه المساواة في تحصيل العلم بين المرأة والرجل في مجتمعنا.

وإذا بسطنا السؤال عمن هو أحق بممارسة العمل في مجال اختصاصه. أهو الرجل أم المرأة؟ وجدنا أن سنة في مجتمعنا قد أهلت الرجل لممارسة الحياة بأنواعها بل ألزمته بذلك، فالرجال بالنص القرآني الكريم قوامون على النساء، قال تعالى في سورة النساء آية ٣٤: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ ..﴾ الآية.

وهذا يعني أنه ليس من الضروري أن تكون المتعلمة موظفة في أي مجال من مجالات الوظيفة سواء الإداري منها أو التعليمي. ولو أن القاعدة الشرعية جعلت القوامة مناصفة بين الرجل والمرأة لما كان هناك استقرار منزلي وعائلي مبني على تقاسم المسؤولية بحسب اختصاص تركيبة جسميهما وهذا لا يعني أيضاً أن المرأة لا تشارك الرجل في بعض الأعمال الوظيفية التي لا تتعارض مع طبيعة تركيبها الجسماني.. فهناك الوظائف التعليمية والطبية والتمريضية وبعض الأشياء المرتبطة بحوائج النساء كالتفصيل والخياطة والتجميل وما شابهها مما يعرف بـ«الكوافيرا» وغيره.

وإذا كان التساوي في بلوغ العلم والمعرفة بين الرجال والنساء قد قارب حده فهذا يوجب التفاتة من المرأة تحملها على القناعة بالاستكفاء

بتحصيل العلم ولزوم البيت لتكون معلمة فيه وعاملة في آن واحد إذا لم تتيسر لها الوظيفة الملائمة لطبيعتها. أما أن تطمع في ممارسة عمل هو من اختصاص الرجل وترضى بأن تكون معه جنباً إلى جنب في مجال اختصاصه. فهذا ما لا يرضاه عنها إلّا مجتمع يقوم على ماديات الحضارة المزيفة التي لا تلتزم في أخلاقياتها بمبادئ العفة وصيانة الذات.

ولقد صور الشاعر السعودي المعاصر عبد الله إبراهيم الهويش جانباً من الحضارة المزيفة في قصيدة له. منها قوله:

حضارة الزيف لا هدى ولا قيم
ولا يقين ولا أمن ولا شيم

في لجة اليأس تمضي وهي حائرة
تطوي الفيافي معقود لها العلم

لم تشهد الحق أو ترعى فضائله
أو تلقى السمع للداعي وتحتكم

هي الحضارة فكر ران مارجه
على العقول بما يغريه أو يصم

لسوف يعلم من ضلت بصيرته
بأن عقبي نعيم خاله ندم

حضارة العلم لكن ذُرّة قلق
وثورة الفكر لكن طلعه سقم

إن يبلغ العلم فيها بعض قدرته
أو يحسن الصنع للدنيا وينتظم

فكم أضاع ثميناً من جواهره
في مرتع البغي لا طلق ولا كرم

الافتخار بجودة صناعة الأشعار!!

يقول الشاعر مسلم الخاسر واسمه مسلم بن الوليد ويعرف بصريع الغواني توفي عام ٢٠٨هـ، ممتدحاً الفضل بن يحيى البرمكي:

سأرسل بيتاً قد وسمت جبينه
يقطع أعناق البيوت الشوارد

أقام الندى والبأس في كل منزل
أمام به الفضل بن يحيى بن خالد

ولعل في هذا القول ما يعطينا الانطلاقة إلى القول بأن القدرة الشعرية التي تعطى صاحبها الثقة التامة بأنه صانع القوافي التي يقصر دون صناعتها الشعراء غيره. قد جعله يفتخر بالتميز على الشعراء بل ربما مزج افتخاره بلهجة لا تخلو من التحدي بأن يصنع الشعراء شعراً كشعره.

وصاحب القدرة الحقيقية في الإبداع الذي لا يُضاهي يُسلَّم له الأمر. ولا يعارض فيما يفتخر به من جودة الشعر وإتقانه.

وظاهرة هذا الأمر عند الشعراء. أو قل عند بعضهم، تفرض سؤالاً يقول: هل كل شاعر يجرأ على امتداح نفسه؟ وقد يتوفر الجواب في القول بأن أي شاعر إلا ما قلّ يرى أنه رب القوافي. بل إن كثيراً منهم لا يرى أحداً متفوقاً. وإنما هو المقدم.

لكن الناقد باستقامته وبحالته المتجردة يعترض على ذلك ما لم يكن الامتداح مبنياً على ما يوجد قناعة لدى القارئ بصفة عامة، لذا زخرت

المكتبات بالدراسات الشعرية ذات النقد الواقعي الذي لا يلتفت إلى الادعاء ويؤيد الحقيقة التي يتولد عنها تصنيف الشعراء وترتيب طبقاتهم. والتشابه في الافتخار في صناعة الشعر يقع كثيراً بين الشعراء الذين لهم باع طويل وقدم ثابت.

وبعض الشعراء حينما يشهد لنفسه بأنه الذي يشار إليه. لا يجد ناقداً يطعن في صدق شهادته. فمسلم الخاسر ما وجد أحداً يعترض على قوله بأن بيته سيقطع أعناق شوارد الأبيات. لأنه من قادة الشعراء ومُلّال القوافي، ولا غرو في ذلك. فقد قيل إنه أول من قال الشعر المعروف بالبديع.

وكذلك الشاعر المتنبي واسمه: أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الرحمٰن الجعفي الكندي ولد عام ٣٠٣هـ، وتوفي عام ٣٥٤هـ، فقد افتخر بشعره وحق له الافتخار بذلك. فعلى سبيل المثال لافتخار بشعره قوله:

وما الدهر إلّا من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمراً
وغنّى به من لا يغني مفردا

وهذان البيتان من قصيدة مشهورة طويلة تبلغ ٤٢ بيتاً امتدح بها سيف الدولة وهنأه فيها بعيد الأضحى عام ٣٤٢هـ وقد استهلها بقوله:

لكل امرئ من دهره ما تعودا
وعادة سيف الدولة الطعن في العدا

ومنها في مدحه يقول:

ومستكبر لم يعرف الله ساعة
رأى سيفه في كفه فتشهدا

هو البحر غص فيه إذا كان ساكناً
على الدر واحذره إذا كان مزبدا

ومنها في تهنئته بالعيد قوله:

هنيئاً لك العيد الذي أنت عيده
وعيد لمن سمّى وضحى وعيدا

○ ○ ○ ○ ○

ما بعد كأن في بعض التشبيهات الغزلية!!

والذي ينسجم مع قراءة شعر الغزل تجده يتطلع لما سيقوله الشاعر من وصف يأتي به بعد ـ كأن ـ فإذا ما أصاب الشاعر الصورة التشبيهية فكأنما هو قد أمدّ القارئ بقوة يمضي بها في مواصلة القراءة طمعاً في قراءة صورة أخرى مماثلة.

ومما قرأته مما ورد فيه من التشبيهات الجميلة في بعض شوارد الأبيات الغزلية قول الشاعر ذي الرحمة واسمه غيلان بن عقبة بن بُهَيْسن بن مسعود بن حارثة أنهى الناسبون نسبه إلى معد بن عدنان والمتوفى عام ١١٧هـ، مشبهاً محبوبته بالظبية من حيث الرشاقة. وذلك في قصيدته البائية المشهورة.

براقة الجيد واللبات واضحة
كأنها ظبية أفضى بها لبب

أما من حيث لون البشرة فيقول من نفس القصيدة:

كحلاء في برج صفراء في نعج
كأنها فضة قد مسها ذهب

والدعج والبرج: سعة العين. أما النعج فبياض البشرة. ولا غرو في ذلك أن يجيد ذو الرمة الوصف وهو الذي قد قال: «إذا قلت كأن فلم أجيد وأحسن الوصف فقطع الله لساني» ولقد تتبعت في ديوانه تشبيهاته تتبعاً غير دقيق. فكانت حصيلة إحصاء تشبيهاته قد وردت فيما يقارب (٣٠٠) موضع.

ولا يبتعد الشاعر تميم بن المعز لدين الله الفاطمي المولود عام



٣٣٧هـ والمتوفى سنة ٣٧٥هـ، في وصف محبوبته عن وصف ذي الرمة من صفرة اللون والتشبيه بالظبية وذلك بقوله:

رأيت في البستان إنسانة
صفراء للألباب سلابة
كأنها لما بدات ظبية
من الظباء العفر مرتابة

وشبه الشاعر السيد أحمد بن مسعود بن حسن بن أبي نمي الحسني المتوفى سنة ١٠٤١هـ، وقيل: سنة ١٠٤٢هـ محبوبته بالبدر. وذلك بقوله:

وبالنقا غادة إذا خطرت
تغار منها الأغصان والكتب
كأنها في الأشيث إن سفرت
بدرٌ بسَجْفِ الظلام محتجب

أما الشاعر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي فقد شبه محبوبته بقضيب ريحان قد نبت فوق كثيب من الرمل.

وساحبة فضل الذيول كأنها
قضيب من الريحان فوق كثيب

وشبه الشاعر سبط بن التعاويذي واسمه: أبو الفتح محمد بن عبيد الله من عبد الله المعروف بسبط التعاويذي ولد عام ٥٢٩، وتوفي عام ٥٨٣هـ، غادة حسناء كانت منتقبة فأزاحت النقاب عن وجهها، بالقمر الطالع من بين السحاب:

فكأنها قمر تفرّق
عن مطالعه السحاب

والغرض من تحبير هذا الموضوع هو ترقيص شعراء عصرنا بتلك النماذج التي تفيض رقة وعذوبة. ومطالبتهم في نفس الوقت بدقة مطابقة صورة المشبهة بالمشبه به ليكونوا خير خلف لخير سلف.

إنقاذ الهوى من الإصابة بالخواء

وإذا ما أصيب الهوى القائم بين المتعاشقين بشيء من الخواء. وتدهورت الحالة التي قوامها التفاهم بلغة العشق. واتسعت هوة التباعد ما بين المتحابين. فإن أكثر ما توصف به هذه الحالة. بالمرض الحسي الذي يغزو قلبي المتآلفين غزواً يصيب مقاتل الهوى من نفسيهما.

ومن الطبيعي أن مرضاً مثل هذا لا بدّ أن يُلتفت إليه وأن يُقام على علاجه وأن يكون الحرص على استئصاله من أولويات اهتمامات كل من كان للهوى في قلبه نبتة مورقة بالحب ومثمرة بالود والوجدان.

ولكن الهوى يصاب في كثير من الأحيان بالفتور. وبشيء من الضعف الذي لا يكاد يكون معه مُوَصِّلاً بين المتحابين. نرى أن بعض أهل الفكر الذين لهم تخصص في هذا المجال يصفون بعض الطرق العلاجية التي من شأنها انقاذ الهوى من التردي في هوة الهلاك. وإعادته إلى سيرته وعنفوانه.

ولعل من أهم تلك الوصفات العلاجية ما كان متمثلاً في العودة إلى المحادثة بلغة الهوى والعشق. وبشيء من الصراحة فيما تترجمه النظرات التي تربط حالة المشاهدة بلغة الغزل الحقيقي ترجمة تبدو منها الرغبة الصادقة في إنقاذ الهوى من الإصابة بالخواء. وترميم ما اختل من كيانه. لا بلغة العتاب والنقاش الحاد الذي ربما يجر إلى تعصب كل بوجهة نظره فيما كان سبباً لتدهور حالة التعاشق والتحاب وذلك مثل الأسلوب الذي جاء في قصيدة الشاعر سعيد إبراهيم فياض التي جعل عنوانها ـ حدثيني ـ منها قوله:



حدثيني كما تعوّدتِ من قبل
وقولي: كيف انتهى ما بنينا

لا تقولي شاب الغرام وبُحّتْ
أغنياتُ الهوى على شفتينا

لا تقولي ولّى الصبا وتلاشت
أُمنياتٌ على صباها انتشينا

أنت ما زلت للمفاتن روضاً
وأنا ما ألفتُ عذراً وقيْنا

فبعينيك للنجوم ظلال
لم تجد ملعباً سوى ناظرينا

وعلى وجنتيك من نُضْرَةِ الورد
رُواءٌ ينداح في خاطرينا

جددي الأمس: واهزجي فالآها
زيج تردُّ الخواء عن مسمعينا

لا تخافي عَوْدَ الهوى. وتحاشي
أن تموت الأحلامُ في خافقينا

○ ○ ○ ○ ○

بل من ألوف الأغبياء!!

من الناس من يرى في مظهر الآخرين ترجمة كافية للشهادة بكمال عقولهم وحسن أدبهم واستقامة أخلاقهم.

وهذا النوع من الناس ربما وصف وعقله في عينه. وتفكيره مرهون بمزاجه. يقيس مستويات صفات أدب الرجولة في الناس بما يلبسون من لباس. فالإنسان ذو الهندام النظيف والهيئة الجميلة هو عنده من أهل الرتب العالية. وأهل الفكر والأدب. بل إنه يكبر فيه بملابسه أشياء لا يتصف بها إلّا العظماء الذين هو أبعد ما يكون عن صفاتهم الحسنة وآدابهم العظيمة.

ومن الناس من لا يحفل حينما يريد تقييم رجل ما بما يلبسه وبما هو عليه من هيئة. وإنما يعمد في ذلك إلى اختيار عقله بالمحادثة. والمحاورة، والمساءلة فيما يكون للعقل والفكر والإدراك شأن في كشف أسرار مقومات شخصيته. وما ينطوي عليه ضميره من مستوى عقلي وذلك ليقينه بأن المظهر لا يطابق المخبر لدى كثير من الناس. ولعلمه بأن العقول لا يستدل عليها باللباس الجميل أو المظهر الحسن. كما أن اللباس لا يستدل به على العقل. لأن الثياب الرثة التي يُلبسها الفقر الإنسان ليس مقياساً. ولا علامة دالة على أن عقل صاحبها رث مثلها. والتفاتات أهل الفكر والحكماء والشعراء إلى هذا كثيرة جداً.. فهم يقدمون صوراً حية تدل على أن المظهر يخالف المخبر في كثير من الحالات سواء في سلبياته أو إيجابياته. فكم من غبيّ في ثياب جميلة ألبسه إيّاها الغنى، وكم من نبيه ذكي في ثياب خلقة مرقعة ألبسه إياها الفقر.



ومن الصور الشعرية التي تعرض لنا جانباً من تلك الحالة. هذه الأبيات التي اخترتها من قصيدة للشاعر سعيد إبراهيم فياض:

قلتُ هل ثوبي بال قذر؟
قال لا.. لكنّه بخسُ الشراء

قلتُ ما يصنع بالفقر امرؤ
يحقر الدنيا ويعلو بالإباء

إن قدر المرء في أخلاقه
وبما يحمل من عقل مُضاء

أيّ وزن لوجيه إن يكن
عبد ثوب وقميص وحذاء

وإذا طارحتهُ الفكر بدا
جاهلاً حتى مفاهيم الحياء

إن مال الأرض لا يرفعه
عن حضيض التافهين السخفاء

فأشاح الطرف عني ومضى
واصفاً ردّي بالقول الهراء

لستُ أدري أصحيح قوله
أم تُراه من أُلوف الأغبياء

○○○○○

خطوة على طريق الفجور!!

إن الإقدام على السير في طريق الانحلال الخلقي لا يتم بطريقة عفوية. لأن الإنسان لم يكن بفطرته مجبولاً على ذلك. وإنما هناك ما يمهد له بأساليب تجتر الإنسان إلى مراتع الفسق والفساد. ولعل أبسطها ما يتمثل في النظرات الغريبة التي تنزع الحصانة الخلقية من النفوس. وتزرع بدلها بذرة الابتذال وتمزيق قناع الحشمة.

ومنها ما يتمثل في تفاعل الكلمات المستخرجة من قاموس الدعارة التي تلون المجتمع وتلوثه بصبغة الفجور التي تلمعها يد الشيطان تلميعاً يستهوي الفساق واستهواء ينحط بهم من صفات الإنسان إلى طباع الحيوان. فتسقط القيم الإنسانية سقوطاً يلطخ الشرف بنجاسة الوحل وقذارته.

وأهل الإصلاح والوعاظ كثيراً ما يحذرون من النظرات المريبة. والكلمات المبتذلة التي تتجرد من العفة والأدب والقيم الإنسانية. ويصفونها بأنها مفاتيح شر يدمر الأخلاق ويقتل سمو النفس.

وكم لاحظ أهل الفكر مساوئ الكلمة الساقطة والنظرة الماجنة وذكروا صفتهما وكيفية بثهما وتلقيهما فيما يكتبونه من آراء يعالجون بها المشكلات التي تهبط بالإنسان. وتصيبه بأمراض خلقية معدية.. وللشعر في عرض هذه الصفة الحيوانية أساليب تصف بعض المسالك المؤدية إلى ذلك الوباء.

من ذلك الشعر قول الشاعر سعيد إبراهيم فياض من قصيدة له عنوانها «فتاة الحانة» وقد تضمنها ديوانه، هتاف الوجدان:



جلستْ وعيناها موزعة الرؤى
لا يستقر بها طواف أو مدى

تترقب العادى وراء فريسة
جمعت مفاتنها قواماً أغيدا

لكأنه وكأنها تراباً ظمأ
كاليبس مشبوب الأوار إلى الندى

وتلفتت نحو الغُفاة بنظرة
لو غازلت جبلاً مشى وتأودا

فتانة لكنها مفتونة
بالغي زاغ بها الضلال عن الهدى

فاهتاج خافقها وجنح طرفها
وتهدّل الوجه القديمُ توردا

حتى إذا طالت غريزة جانح
قلباً ووجداناً. وما يحوى يدا

هدأت أعاصير الجموح وهللت
قسماتها ثم استكانت مقعدا

ﻫ ﻫ ﻫ ﻫ ﻫ

ابن عبد الكريم إلى رحمة الرب الكريم!!

وابن عبد الكريم هو الأديب محمد بن عبد الله بن محمد العبد الكريم أحد أعيان المجتمع السعودي المعاصر ولد ببلدة «حرمة» بمنطقة سدير الواقعة ببحبوحة نجد بالمملكة العربية السعودية وذلك عام ١٣٦٦هـ. وشغل عدة مناصب.. منها أنه كان مديراً عاماً للشؤن الإدارية والمالية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. ثم مديراً عاماً للمشاريع بنفس الجامعة. وكان له دور في تأسيس المعاهد العلمية والكليات حين أنشائها. كما كان رحمه الله من مؤسسي جمعية البر بالرياض. وعضو مجلس إدارتها.

وقد كانت وفاته بالقاهرة يوم الجمعة ١٩/ ٤/ ١٤١٨هـ. ونقل جثمانه إلى الرياض ودفن في مقبرة النسيم بعد أن صلى عليه جمع غفير بعد صلاة عصر يوم السبت ٢٠/ ٤/ ١٤١٨هـ.

وممن باشر في رثائه صديقه الشاعر صالح بن محمد المالك الذي قال قصيدة رثائية عنوانها «دمعة وفاء» وقد نشرتها جريدة الجزيرة في عددها ٩٠٩٦ الصادر يوم الأحد ٢١/ ٤/ ١٤١٨هـ. وطأ لها بقوله: حزنت لنبأ وفاة الصديق الوفي محمد العبد الكريم أشد الحزن. وكيف لا أحزن لهذا النبأ وهو يحمل فقد أخ عزيز عرفته منذ أكثر من أربعة عقود رجلاً كريماً وصديقاً مخلصاً.

ولقد حاولت بهذه الأبيات المتواضعة أن أعبر عن ألمي لوفاته. وحزني لفقده ولكن عظم المصيبة لم يعطني القدرة على تصوير ما أشعر به تجاه هذا الفقيد الغالي عليه رحمة ربي، ثم ساق القصيدة التي منها قوله:



أعيني جودا بدمع الوفاء
على من عرفت وفيّ الإخاء
على من عرفت صديقاً صدوقا
تقيّاً نقيّاً لطيف اللقاء
أبا الفهد بعدك من لي بخل
صدوق المودتي جم العطاء
وفيٌّ حفيّ بإخوانه
وفيه لهم صالح الإقتداء
يبادلهم حبه مخلصاً
وفيه لهم مستحب العزاء
أبا الفهد فقدك همّ لنا
وكرب به موجعات البلاء
أبا الفهد فينا ستبقى أخا
تضيء لنا مسلك الاهتداء
ستبقى لنا مثلاً رائعاً
ونبراس هدى لأهل النقاء

○ ○ ○ ○ ○

هتاف الوجدان.. عنوان قصيدة وديوان!!

كم تتملك الحيرة بعض المؤلفين والشعراء حينما يريدون اختيار عنوان لما يقومون به من أعمال أدبية يقدمونها لقرائهم، وقد يوفق بعضهم فيقع اختياره على عبارة تدل القارئ على حقيقة مضمونه. فيقع الكتاب تحت مفهوم قولهم: «الكتاب يقرأ من عنوانه».

وقد يشاق بعضهم لعبارة ذات نغمة سجعية جميلة فيجعلها عنواناً لمؤلفه وهي أبعد ما يكون عن مفهوم محتواه.

أما الشعراء فكثير منهم من يكتفي بذكر اسمه بعد لفظه ـ ديوان ـ وهذه طريق ربما اتخذها من يقوم بجمع شعر شاعر عاجله الأجل قبل أن يحصر شعره في اضمامة يختار لها ما يطربه من العنوانات المثيرة والموافقة في نفس الوقت لمنهجه الشعري.

وبعض الشعراء يكون لبعض قصائده خاصية في نفسه. ويرى أنها قد ترجمت شيئاً من مشاعره ووفت بما يريد قوله، فيأخذ من عموم أهدافها عنواناً جامعاً لمحتواها. فيظل هذا العنوان باقياً في ذاكرته بقاءً يفرض عليه اختياره بأن يكون عنواناً لجميع أعماله الشعرية عندما يقوم بجمعها، وذلك مثل ما فعله الشاعر المعاصر سعيد إبراهيم فياض الذي جعل عنوان قصيدته «هتاف الوجدان» عنواناً لديوانه المكون من جزئين أصدرهما في مجلد واحد عام ١٤١٤هـ.

وبعد فإني لا أخال قارئاً لما كتبته أدناه إلّا متطلعاً لسماع بعض أبيات قصيدة «هتاف الوجدان» التي تبلغ ٤٤ بيتاً تعنى في مجملها التوجد على الأهل والأصدقاء والأقارب الذين يرى فيهم تباعداً عنه.



وميلاً إلى غيره عن جهل بما هو عليه من قيم يفتخر بالتزامه لها.

من تلك القصيدة قوله. وهو مطلعها:

ساء حظي وباء بالفشل المُرِّ
كفاحي فشدّ بُؤْسِي وَثاقي

ومنها قوله:

وكفاني من المحبين نزرٌ
ألتقيهم بالنورِ في آماقي

لا يقاس الأحباب بالكم بل
بالنوع فالكم سلعةُ الأسواق

أنا لا أحمل الضغينة حتى
لو تثورُ الجراح في أعماقي

وإذا ما استهان بي كل أهلي
وصحابي واسهموا باختناقي

فسيبقى السماح دربي إليهم
وصبيب الإيمان يُطفي احتراقي

ثم يختمها بقولها:

هكذا عشتُ ما مضى من حياتي
وسأبقى ما طال مَدُّ انطلاقي

مغضبا زاهداً بإغواء دنياي
غنياً في طاعة الخلاق!!

○ ○ ○ ○ ○

هل مجالسة البقر أمتع من مجالسة الثقيل. وضحك القرود أبشع من حديثه؟

والثقيل من الناس. هو إما أن يكون سيء الأدب. أو فاسد الذوق. أو قبيح المنطق. أو جاهل يتعال. أو من ديدنه النميمة والغيبة.

وحينما يكون لأخلاقيات هذا الثقيل وصف في كتب الأدب فإنه يكون للناس رغبة شديدة في قراءة وصفة خاصة إذا كان الوصف شعراً صادراً عن شاعر متمكن يعرف كيف يطرب القارئ بحسن اختياره للمفردات. وإتقان صياغته لها.

وبعض الشعراء يكون له التفاته ذكية يدرك بها أهم الأسباب التي تجعل الناس يقدمون على قراءة وصفة لثقيل ما. ألا وهي عدم ذكر اسم الثقيل الذي يتولى وصفه لأنه يعلم أن هناك قولاً مأثوراً، لا غيبة لمجهول.

ومثل هذا النمط الذي تدعو الرغبة إلى قراءته والاستمتاع بما فيه من وصف يكون للفكاهة اللاذعة فيه طعم. وللطرافة فيه رائحة، تجده يحظىٰ بالقبول من لدن الوسط الأدبي بصفة عامة.

ومن بعض نماذج الأشعار التي يجعل منها أصحابها سفينة تجوب بشواطئ مجتمع الثقلاء. وترسو في مرفأ اسمه الثقيل حيث تلقي هناك بحملها الذي لا يعدو عن كونه سخرية واستهزاء بهم.

والشاعر المعاصر على الجندي واحد من الشعراء الذين وصفوا الثقيل في بعض أشعارهم. فقد قال قصيدة جعل عنوانها «بعض الثقلاء»



وقد تضمنها ديوانه «ألحان الأصيل» منها قوله وهو مطلعها:

ثقيل على أرواحنا ثقل الحجر
نُلقّبُه من شؤمه، زُحل البشرْ

ومنها في وصفه يقول:

وأبشع من ضحك القرود حديثه
وأقبح من فقر ألم على الكبر
يُمنُّ على جُلّاسه بجلوسه
وأمتع منه أن تجالسك البقر
أعوذ بوجه الله من وجه ضفدع
تطالع في أسراره صفة الكدر
وإن لحظت ألحاظه قمر الدجى
فما عجب إن قيل: قد خسف القمر
يحاذر - عزريل - من البرد مسه
فمن أجل هذا قد تراخى به العمر
فياليته يوماً أحسّ بأنه
ثقيل على الروح الحقيقة فانتحر
فيارب لا تدخل جنانك مثله
فيهرب منها الصالحون إلى سفر

بقي أن نبتهل إلى الله أن لا يجعلنا ثقلاء مكروهين. وأن يجعلنا مقبولين تطلب مودتنا. وتخطب صداقتنا.

○ ○ ○ ○ ○

هل من علاج لمقلوبات الأمور!!

تتبعثر الرؤية. وتتشعب الطرق. ويتلاطم موج الفكر تلاطماً تنكفئ بسببه سفينة النفس إنكفاءً يبقى معه الضمير الحي مصفقاً وسط تداخلات يظل الإنسان تائهاً مبهوتاً ينشد في معمعتها ما استقام من الأمور وهو صفر اليدين. فلا تراه إلّا والأسى قد عصر نفسه وبلغ به مبلغاً لا يستطيع معه تحريك قدمه من المكان الذي غشيته الدهشة فيه بسبب ما رآه من مقلوبات الأمور التي يترجم بعضها استنعاج الأسد. واستئساد القط. وجرأة الحمار على الدخول في سباق مع الحصان في ميدانه وحلبة سباقه. واسترجال المرأة في زيها. وجرأتها على القيام بأعمال هي من أعمال الرجال واختصاصاتهم.

وكيف لا يندهش وموازين الناس قد أصبحت مقلوبة. ومفاهيم العقلاء تشكو عقوق المتلقي لتوجيهاتها وتتذمر من عدم المؤازرة والاستجابة لإنقاذ تصحر النفوس مما أصابها بسبب رفضها مصافحة يد الإصلاح ولتجردها من القيم السامية والخصال المحمودة التي هي حلية أهل الفكر ووسام المجتمع الراقي.

لكن الهاجس فيما آل إليه هذا الأمر خاصة في زماننا لا يزال يتحسس أساليب التحذير عما قبل به الناس من مقلوبات الأمور. ويشدد على أن يكون كل ذي مكان في مكانه لا أن يقعد السفيه في مقعد الحكيم. ولا يجلس الجاهل في مجلس العالم. وأن يكون التبصر في الأمور هو مقود سفينة الحياة.

ومن الشعراء من قرب وصف صورة الأمور المقلوبة وذلك مثل ما

قاله الشاعر المعاصر على الجندي في إحدى قصائده التي ضمها ديوان «ألحان الأصيل» والتي أقتطف منها الأبيات التالية التي وصف فيها الدنيا وأهلها.

عزّ فيها كل منزوف الحجا
أو وقاح الوجه أو خدن الريبْ

أو سفيه القول مرهوب اللّها
ينهش الأعراض كالكلب الكلب

أو لئيم الأصل والطبع معا
أو صريع الغيد أو - بنت العنب -

أو وفير الوفير لا يندي يداً
في سني يوسف، أو يندى الخشب

أو خلوب الود ممذوق الهوى
أو غضيض الجفن مصقول اللبب

كلُّ من فيها - كقيس - مغرم
لا - بليلاه - ولكن باللقب

نهض الناس بأعباء العلا
وحملنا نحن أوزار - الرتب -

وفي ختامها يقول موصياً صديقه بصرف النظر عن هذه المتغيرات والتزام الإيمان بالله:

يا صديقي كن مع الله ولا
تعتب الأقدار واسجد واقترب

○○○○○

الرّيـري!!

وعندما يرى الناس في ناحيتنا في منطقة سدير. شخصاً قد احمرّ منخره وما يليه من شفته العليا بسبب تأثرهما من كثرة مسح السائل. والمخاط الخارج من الأنف. يقولون: به ـ رِيري ـ وهي لفظة فيها شيء يدعو إلى عدم الاستساغة وقبول الأذن لسماعها. بل ربما نفرتْ من سماعها الأذن واستكرهتها النفس.. وكان ظني أنها ليست بلفظة فصيحة. ولكونها لفظة متميزة من حيث تركيب حروفها تميزاً أبقاها في الذاكرة. فقد كانت حاضرة كلما وجدت لفظة تتكرر فيها الراء. كالحرير ـ والصرير ـ والهرير. وما إلى ذلك. لاحت لي لفظة ـ ريري ـ لهذا بحثتُ عن صحتها فوجدت ابن منظور قد ذكرها في معجمه ـ لسان العرب ـ فقال: مخٌّ رَارٌ، ورَيْرٌ، ورِيرٌ: ذائب فاسد من الهزال، قال أبو عمرو: مخٌّ رَارٌ. وَرَيْرٌ للرقيق. أو رار اللهُ مُخّهُ أي جعله رقيقاً، قال: وفي حديث خزيمةَ: وذكر السَّنَةَ فقال؛ تركتِ المُخَّ راراً. أي ذائباً رقيقاً للهزال وشدة الجدب. وقال اللحيانيُّ: الرَّيْرُ الذي كان شحما في العظم. ثم صار ماءً أسود رقيقاً. قال الراجز:

أقـول بـالـسّـبـتِ فُـويـقَ الـدَّيْـرِ

إذْ أنـا مـغـلـوبٌ قـلـيـلُ الـغـيـرِ

والـسـاق مـنـي بـاديـات الـرَّيْـرِ

أي أنا ظاهر الهزال. لأنه دق عظمه. ورق جلده. فظهر مُخُّهُ.

وقالوا: الرَّيْر: الماء يخرج من فم الصبى، وهذا القول يعني صحة وصفهم معنًى ولغة لولا ـ ياء ـ النسبة التي أضافوها. لأنه كما

تبينا، رَارٌ، ولبس ـ بريري ـ إلّا أن يكون عند بعض علماء اللغة ـ ريري ـ ولم أطلع عليه. وقد ورد ذكر ـ الرار ـ في بعض أشعار العرب. وذلك مثل قول جرير بن عطية الخطفي المتوفى سنة ١١٠هـ من قصيدته التي مطلعها:

قد غير الحي بعد الحي إقفارُ
كأنه مصحف يتلوه أحبارُ

وفيها يقول لشبة بن عقال:

يا شبَّ لن يستطيع الحرب إذ حميت
عظم خريع وفيه المخَّةُ الرّارُ

ويقول جرير أيضاً من قصيدة رثى بها زوجه أم حزرة واسمها خالدة بنت سعد.. ومطلعها:

لولا الحياء لعادني استعبارُ
ولزرتُ قبركِ والحبيب يزار

ويذكر الرّار في أحد أبياتها فيقول:

ويفايشونك والعظام ضعيفةٌ
والمخُّ ممتخر الهنانة رارُ

والهنانة: المخ الرقيق.. ولا ينسى جرير هجاء الفرزدق حتى وهو يرثي زوجته ففي نفس القصيدة التي تبلغ ١١٧ بيتاً يقول في هجائه للفرزدق:

إن الفرزدق لا يزال مقنعاً
وإليه بالعمل الخبيث يُشار

○○○○○





فهرس الجزء الخامس عشر

